

الأعمال
الإبداعية

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

أديب د. طه حسين



الهيئة المصرية
للعامة للكتاب

۷۲
۸۹۷-۷۳
۲۵۲
۱

أديب

٢٢٢٣٤
٢٠٠٢

أديب



National Library and Archives of the State of Palestine
Bibliothèque Nationale et Archives de l'Etat de Palestine

الهيئة العامة لكتبة الأسكندرية

٢٢٢٣٤

رقم الكتاب

٢٢٢٣٤

رقم التذكرة

طه حسين



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

أديب
طله حسين

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف:

للفنان: جمال قطب

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سميح سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية
وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى
التميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ
للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر
الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى
فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

أخي العزيز

• وددت لو أسميك ، ولكنك تعلم لماذا لا أسميك ، وحسب الذين ينظرون في هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المعزين لي حين أخرجني الجور من الجامعة ، وأول المهنيين لي حين ردني العدل إليها . وكنت بين ذلك أصدق الناس لي ودّاً في السر والجهر ، وأحسنهم عندي بلاء في الشدة واللين .

فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لإخائك

الصادق الخالص . .

طه حسين

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس . فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ولا يشعر بشيء إلا أعلنه ، وهو إذا نظر في كتاب أو خرج للترويض ، أو تحدث إلى الناس ، فأنار شيء من هذا في نفسه خاطراً من الخواطر ، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف ، أو حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي ، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس .

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه ، وإنما يحس للناس ، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ، ويضلها أقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير . وإنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي أنتجته طبيعته الدقيقة الحصبة الغنية ، فإذا كان متواضعاً ، معتدل الرأي في نفسه فهو شقي تعس محزون ، يجب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له

أو يرافون به أو يشفقون عليه . وربما لم ير في نفسه إثارة ، ولم يحس أنه
شقي وإنما أثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلا أو كثيراً فهو يسجل ما يحس
وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين
إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية ، وكثيراً ما تعرض له
الفرص التي تحمله على أن يستعرض حياته الماضية والذاكرة قصيرة
ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه
الفردى الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها ؟
وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته
الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .
يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع ، ويعلمها بهذه
الألوان من التعلات . وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب ، لا يستطيع
أن يعيش إلا إذا كتب ، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل
ويشرب ويدخن لأنه محتاج إلى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين
يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس
أو يجرى به القلم ، كما أنه حين يأكل ويشرب قلما يفكر فيما يلائم صحته
وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ . إنما هي
حاجة تضطره إلى الحركة ، فيتحرك وتدفعه إلى العمل فيعمل . فأما
عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير
فيها في يوم من الأيام حين تصبح أمراً مقضياً لا منصرف عنه ولا سبيل
إلى التخلص منه .

بحس أنه إذا كان هذا كله صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن
 ما يحس يكون صاحبي الذي أريد أن أتحدث إليك عنه أديباً . فلست أعرف
 من حين الناس الذين لقيتهم وتحدثت إليهم رجلاً أضنته علة الأدب ،
 برض له واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئاً ،
 قصيرة ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً إلا فكر في
 تاريخه الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها
 هزلاً ؟ ما أحس ، وما شعر وما قرأ ، وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة
 في إخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيراً ما كان يقول لأصحابه إذا
 رأى شيئاً أسخطه أو أَرْضاه : ما أخلق هذا الشيء أن ينشئ صورة
 بهذه أدبية ممتعة للسخط أو للرضاء ! وكان يقضي نهاره في السعي والعمل
 يستطيع والحديث حتى إذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن
 يأكل الناس وخلا إلى نفسه ، أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب
 وحين يكتب حتى يبلغ منه الإعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم
 لقرطاس ولا يفهم ، وتختلط الحروف أمام عينيه الزائغتين ، ويأخذه دوار ، فإذا
 ثم صحت القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطرب إلى أن يأوى إلى مضجعه
 نائم ليسريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائماً
 . فأما كما كان يكتب يقطاً ، وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ،
 للتفكير وخطباً ومحاضرات . ينمق هذه ويدبج تلك ، كما كان يفعل حين
 ! سبيل كانت تجتمع له قواه العاملة كلها . وكثيراً ما كان يحدث أصدقاءه
 بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التي كانت تملأها عليه

أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعاً .

وكثيراً ما كان يقرأ عليهم فصولاً من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقطته ، وسجلتها يده حين كان يخلو إلى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء وبما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان أصدقاؤه إذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه في أن يذيع ذلك وينشره ، فبيتسم ثم يهزأ ، ثم يمتنع عليهم ويلج في الامتناع ، لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد إلى أن يكون خليقاً بأن يقدم إلى المطبعة ، فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن ما يقدم إلى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون القدماء إلى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون إلى إلههم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفي الضحية وأن يتخير القربان ، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعاً .

وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفي ولا قربان يختار . وأنه لم يوفق بعد إلى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه ، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله . فما زالت الآماد بينه وبين المطبعة بعيدة ، وما زالت الأستار والسجف دونه مسدلة .

فليكتب إذن لنفسه لا للمطبعة ، فإذا ضاق بنفسه وبما تملى فليظهر

أصدقاءه على شيء منه ولبرض هذه الحاجة القوية التي نحسها جميعاً إلى أن نشرك الناس فيما نجد من حس أو شعور . والحق أن صاحبي لم يكن يقدم على هذا إلا كارهاً مضطراً حين لا يجد بداً من الإقدام ، أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم . وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض جسمه عارياً على الناس . ولكن أصدقاءه لم يكونوا في حاجة إلى أن يروا شخصه عارياً . وكانت حاجتهم شديدة إلى أن يروا نفسه كما هي ، لأنها كانت جميلة خلاصة تروهم حيناً . وتثير في نفوسهم الحب والمودة دائماً .

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه ، وكان إلى القصر أقرب منه إلى الطول . وكان على قصره عريضاً ضخماً الأطراف مرتبكها كأنما سوى على عجل ، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص ، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد . وكان وجهه جهماً غليظاً يخيل إلى من رآه أن في خديه ورماً فاحشاً . وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف في الدقة ، منبطح غال في الانبطاح ، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم . لم تكن قد تقلمت به السن ، بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد . كان على قصره مقوس الظهر إذا قام ، منحنيًا إذا جلس ، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة ، وإسرافه في الانحناء على الكتاب أو القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه . وقلما كان وجهه يستقيم

أمامه ، إنما كان منحرف العنق دائماً إلى اليمين أو إلى الشمال ، وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة ، إنما كانتا مضطربتين دائماً لا تكادان تستقران على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء ، أو تنحرفا عنه إلى ما يليه من إحدى نواحيه . ولم يكن صوته غدياً ولا مقبولاً ، وإنما كان غليظاً فجاً ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه إذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال . وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظاً مخيفاً ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل . وكثيراً ما ضايقه ذلك حين كان في باريس . وكثيراً ما حل ذلك الناس عامة ، وأصدقاءه خاصة ، على أن يضيقوا به ويحتنبوه إذا لقوه في قهوة أو ناد أو ملعب من ملاعب التمثيل . وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس إلى ، وأكرمهم على ، وأثرهم عندي ، وأحسنهم مسلماً إلى نفسي ، ومنزلاً من قلبي . كان يزورني فأنصرف إليه عن كل شيء وأقضي معه الساعات ، فإذا بركني خيل إلى أني لم أقض معه إلا اللحظات القصار . وكنت إذا أعيايتي الدرس واحتجت إلى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث إليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم إلى القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ، ثم أدركته في باريس بعد أن سبقني إليها . عرفته مصادفة وكرهته كرهاً شديداً حين لقيناه لأول مرة ، كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها ، وكنت أختلف إلى ما كان يلقي فيها من المحاضرات ، حريصاً عليها مشغولاً بها معتزلاً ألا أضيع حرفاً مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي لهذا دائماً قريباً من الأستاذ . فإني لمصغ ذات ليلة إلى الأستاذ وإذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئاً ، ولكنه على هدوئه يغمر أذني جميعاً ، ويكاد يخفي على صوت الأستاذ فأجد في التخلص منه فلا أفصح ، وأضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباي اللذان يكتنفاني .

فالتفت إلى صاحب الصوت نطلب إليه الصمت فلا يسكت إلا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجع مرة أخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه إلى الأستاذ فيضطره الأستاذ إلى الصمت . حتى إذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا في غلظة ، فإذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه ، فهقه قهقهة خفيفة ، وقال في صوت ما نشك أن الأستاذ

قد سمعه : « وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر ، فكل شيء عندكم قيم ، وكل شيء عندكم جديد » .
واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وأن نختار لأنفسنا مجلساً بعيداً منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا . فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ يجتبي أو قفطاني وهو يسألني : « أعجبتك المحاضرة ؟ » فإن قلت : « نعم » قال : « وماذا أعجبتك منها ، وهل فهمتها على وجهها ؟ » وكان يقول لي : « هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تهالك عليها هذا الهالك ، فهي أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع » .
فلما ألح علي في ذلك سألته : وإذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك إلى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات ؟ وما تهويشك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شيء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن في الجامعة إلا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون في كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافياً لأن أختلف إلى الجامعة وأستمع للمحاضرات . ثم سألتني ذات يوم : أين تقيم ؟ أجبتة : أقيم في حي كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم في الأزهر أو في المدارس المدنية . قال : إن منزلك بعيد وليست بيتك بالتي تحب . فأنا

لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك
وأحدث إليك فأطيل الحديث ، بل أنا حريص على أن أقرأ معك
بعض الكتب ، فلا بد إذاً من أن نلتقى ، ومن أن نلتقى في نظام
واطراد ، فليكن ذلك عندي ، ولك على أن أردك إلى أهلك وأصدقائك
قبل أن يتقدم الليل ، دون أن تجد في ذلك مشقة أو تحتمل فيه عناء .

وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن
أمره سيطاع ، وقد هممت أن أرد عليه معتذراً ، وما كان أكثر المعاذير ؛
فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف إلى أحد دون إذن من أخى ،
وكان على أن أغدو مع الفجر إلى درس الأصول ، ولم يكن بد من أن
أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر ، وأن أعوض هذا الوقت
الذى أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخى في القاهرة ،
وأسرقى في الريف .

هممت أن أعتذر ، ولكنه لم يمهلى ولم يتح لى أن أقول حرفاً ،
ولنما استوقف عربة ودفعني فيها دفعاً ، وأمر خادى الأسود الصغير
أن يجلس إلى جانب السائق ، وجلس هو إلى جانبي وقال للسائق
بصوته الغليظ العريض : إلى القلعة ، وكنت أسكن في أقضى الجمالية .
فلما أخذت أقدر بعد الأمد بين داره ودارى ، وهممت أن أتكلم ،
وضع يده على كتفى وقال : ألم أقل لى سأردك إلى حيث تقيم ؟ !

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة ، ومضت بنا في أجواء متباينة ،
 وكنت أحس اختلاف الأحياء ، وتباين الأجواء فيما يصل إلى من
 أصوات الناس وحركاتهم ومن اضطراب الأشياء من حولنا ، كما كنت
 أحس ذلك في سير العربة نفسها وفي لهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه
 ويطلب إليهم أن يتنحوا له عن الطريق أو أن يجنبوا أنفسهم خيله
 وعربته .

كان الحمى رشيقةً أنيقاً ، وكان الجو سمحاً طليقاً ، وكانت الحركات
 والأصوات من حولى لا تخلو من شدة وعنفة ، ولكن فيها ظرفاً وتأنقاً ،
 حتى إذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد أمامنا الزحام ،
 وكثر من حولنا الصياح ، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط
 بأصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل ، وانتشرت في الجو
 روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار .
 وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم
 الناس له وتأنيبهم إياه ، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذى يحدثه
 السائقون بأسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التى يرددون بها الخيل
 وينبهون بها المارة . ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، ويخف

الهواء وتهدأ الحركة ، ويتنفس السائق مطمئناً ، وتمشى الخيل رقيقة .
ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربى ذات اليمين . وإذا نحن فى
حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت فى أرضها
الأخاديد . فالعربى تقفز بنا قفزاً ، والسائق يهز سوطه فى الهواء ،
ويحذر وينذر فى هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ إلى أن
تفتح ، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم
يعبثون بالسائق . ومنهم من يتعلق بالعربى ثم ينصرف عنها ، ونجن
نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه
ويلتفت وراءه ، ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه بألفاظ ترقى
حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل إلى الشتم القبيح ، وكل
ذلك يصل إلى نفسى فيحدث فيها آثاراً مختلفة ، ولكنها على اختلافها
تتفق فى شىء واحد هو الطرافة ، لأنى لم أكن تعودت ركوب العربات ،
ثم يقف السائق فجأة ونزل من العربى ، وإذا صاحبى يقول لى : لم
نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا إلى حيث لا تستطيع العربى أن تمضى ،
فهل تعودت التصعيد والرقى فى الجبل ، فأنا لا أحب أن أسكن فى
السهل المنبسط فأكون كغيرى من الناس . وإنما أحب أن أشرف على
القاهرة ، وأن أخيل إلى نفسى أنى لست منغمساً فيها ، وأنى أدخلها إذا
غدوت إلى عملى مع الصبح وأخرج منها إذا رحت إلى بيتى مع الليل .
ولست أخفى عليك أنى أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار
هابطاً إليها من هذه الربوة كأنى أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر

على فريسته ، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين
أمضى النهار كله في المدينة مضطرباً مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ،
خائضاً مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركاً للناس فيما يأتون
من خير وشر ، نافعاً ضاراً منتفعاً محتملاً للضرر ، حتى إذا كان المساء
ضقت بهم وضاقوا بي ، وأويت إلى جامعتكم هذه الجديدة أريح
نفسى بما أسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف . ولكنه على كل حال
ليس بدى غناء ، حتى إذا أخذت بحظي من هذه الراحة الأولى ،
رحت إلى بيتي ، فلا تسلم عن هذا الشعور العذب الذى يغمر قلبي
شيئاً فشيئاً كلما دنوت من هذا المكان ، أحس كأني أنسل من المدينة ،
وأتحفف من أثقالها وألقى آثامها من ورأى وأظهر جسمى ونفسى من
أوضارها وأدراها ، حتى إذا رقيت هذه الربوة وبلغت قممها هذه
— وكنت قد أحسست الجهد من التصعيد في طريق عالية ملتوية —
وقفت وقفة من كان في مكروه فخلص منه . وأرسلت زفرة ينجيل إلى
أنها تحمل بقية ما علق بنفسى من شر المدينة ، ثم تنفست ملء
رئتي مرة ومرة ، ثم أقبلت هادئاً مطمئناً قصير الخطى إلى هذا الباب .
وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم أغلق من دوننا .

٤

وانعطف بنا إلى اليمن فشيننا خطوات ، ثم انتهى بنا إلى دهليز ،
فرقينا درجات ، وخادم صببية تسعى بين أيدينا وقد حملت في يدها

اللطيفة سراجاً صغيراً يضطرب منه ضوء ضئيل ، حتى إذا بلغنا أعلى السلم وقف يبحث في جيبه عن بعض الشيء ، ثم أخرج مفتاحاً فأداره في قفل أمامه حتى إذا فتح له الباب صاح صيحة غريضة أن اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام .

ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انحنيت إلى حداثي أريد أن أدخله حقاً ، وأتى غرابة في ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء مرات في كل يوم ، حين كنت أختلف إلى الدروس في الأزهر أو في جامع محمد بك ، أو في جامع العدوي ، أو في جامع الأشرف . هناك حيث كنت أستمع لدروس الأصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد ، وتعودت خلع الحذاء حين كنت أزور بعض الدور ، ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ، ولا سيما هذا الشيخ الذي كان الخديو قد نفاه من الأزهر نفياً وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه إلى داره وألحنا عليه في أن يمضي في إلقاء ما كان يلقي علينا من الدروس لا حباً في علمه ولا تهالكاً على شخصه ، ولكن تحذيراً لذلك السلطان الذي كنا نراه جائراً متحكماً ، ولا نريد أن ندعن لجوره ولا لتحكمه ، وآية ذلك أننا نشرنا في الصحف خبر إلحاحنا على الأستاذ ، واستجابة الأستاذ لنا ، واختلافنا إلى داره في الضحى من كل يوم نسمع منه الأصول في بعض الأيام ، والمنطق في بعضها الآخر .

هنالك في الدرب الأحمر كنا نبليغ الدار مختلفين ، فبعضنا يتخذ أحذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ أحذية الأفندية ، وكلنا كان يخلع

حذاءه ، إذا بلغ المنظرة ، فلم أجد إذاً غرابية في أن يطلب إلى صاحبي أن أخلع نعلي حين بلغنا غرفته هذه ، فلعل ما كان يغطي أرضها من بساط أو حصير كانت تقام عليه الصلاة ، كما كانت تقام على ما يغطي أرض المساجد وأرض منظرة الشيخ من بساط أو حصير . ولكنني لم أكّد أنحنى على حذائي لأخلعه حتى امتلأ الجو بضحك عريض رائع مخيف ، ثم امتدت إلى يد صاحبي الغليظة فردتني إلى اعتدال القامة ، وصاحبي يقول : ماذا تفعل ؟ أفتظن أنك في الأزهر ؟ أو هذا كل ما علمته من البيان ؟ قلت في شيء من الدهش عظيم : وأي غرابية في أن تخلع النعال عند أبواب الغرف ؟ وأين يكون البيان وأبوابه من خلع النعال ؟ قال : يا سيدى إنهم يدرسون لكم في الأزهر التشبيه والاستعارة والحجاز والكناية . وما أشك في أنك تستطيع أن تعيد على كل ما سمعته من هذا ، ولكنك تملأ صدرك بما لا تفهمه ولا تحسن الانتفاع به ، فأني لم أرد أن تخلع نعليك ، وإنما أردت أن تكبر هذه الغرفة التي بلغتني والتي استدخلها ، لأنها غرفة العلم والأدب ، ومستقر الأسفار والكتب ، ومهبط الوحي إن كان ما يقع في نفس رجل مثلي يريد أن يكون أديباً شيئاً يمكن أن يسمى وحياً . فلو أنك تدرس علم البيان درى فهم وانتفاع حقاً ، لما أعياك أن تفهم عنى ما كنت أريد . قال ذلك في صوت غليظ يقطعه هذا الضحك الذي يصور السداجة والمكر وحب السخرية في وقت واحد ، ثم أخذ بيدي ومضى معي حتى أجلسني على كرسي أمام

مائدة لم أكد أضع عليها يدي حتى لمست كتاباً .
وكانت الخادم في أثناء ذلك ما زالت قائمة وفي يدها اللطيفة سراجها
الصغير . فالتفت إليها مغضباً ضاحكاً معاً ، وهو يقول : وما وقوفك
أنت هنا كالصنم ؟ ثم خفض صوته قليلاً وقال : ومع ذلك فإن منظرها
جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن .
ولم تنصرف الصبية بسراجها ، وإنما ظلت في مكانها حتى مد يده
إلى سلسلة تضطرب في الجو فجذبها إليه في شيء من العنف ، حتى
إذا هبط إليه المصباح المعلق في السقف أضاءه ورفعته ، وقال للصبية
انصرفي الآن وعشينا إن كان عندك طعام .
ثم جلس مني غير بعيد وأشار إلى غلامى الأسود الصغير أن استرح
حيث تشاء ، وبدأ حديثه معي في لهجة الخازم الجاد . فقال : والآن
يا سيدى يجب أن ندع اللغوها جئنا هنا للغو ولا لنلهو ، وأن نأخذ
في الجد فللجد وحده أقبلنا ، فحدثني من أنت ، وسأحدثك من أنا ،
حتى إذا عرف كل منا صاحبه أخذنا فيما ينبغي أن نأخذ فيه . قلت :
فإنك تنظم الأمر كما تحب ، تتحكم في ذلك تحكماً غريباً ، لا تسألني
عن شيء ، ولا تستشيرني في شيء ، فلاني لم أطلب إليك أن أجيء
إلى هذا المكان ولا أن آخذ معك في لغو أو جد . قال مقاطعاً :
فأنت لا تريد إذاً أن تحدثني عن نفسك حتى أحدثك عن نفسي .
فسأحدثك عن نفسي ولكن بعد أن أنبئك أني أعرفك حق المعرفة ،
وكنيت خليقاً أن تعرفني لولا أنك حديث السن .

ثم قص على من أمرى ما كنت أظن أنه أبعد الناس عن العلم به ،
ولكنى لم أدهش لذلك حين ذكر لى اسمه وتحدث إلى عن أسرته ،
وأنبأنى بأنه من هذه القرية التى ليس بينها وبين مدينتنا إلا ساعة
أو بعض ساعة للذين يمشون على الأقدام ، وأنه قد نشأ فى مدينتنا ،
أو أكثر التردد عليها حتى كأنه نشأ فيها ، وأنه قد تعلم القراءة والكتابة
فى نفس الكتاب الذى تعلمت فيه ، وقد عرف إخرقى الذين سبقونى
إليه ، وقد ظلت المودة متصلة بينه وبين بعضهم حتى تركت أسرتنا
هذه المدينة إلى أقصى الصعيد . وحتى هبطنا نحن إلى القاهرة نطلب
العلم فى مدارسها المختلفة .

منذ ذلك الوقت تقطعت الأسباب أو رثت بينه وبين من كان
يود من إخرقى ، يسألنى عنهم واحداً واحداً ، وأنا أجيبه ، ثم أسأله عن
نفسه كيف تعلم وماذا يعمل الآن ؟ فينبشنى بأنه أتم درسه الثانوى منذ
أعوام ، واتصل بوزارة الأشغال يعمل فيها كاتباً فى بعض الدواوين
يختلف إليها وجه النهار ، ويعكف آخر النهار وجزءاً غير قليل من الليل
على القراءة والدرس حتى كلف بهما أشد الكلف ، وأصبح عمله فى
الوزارة وسيلة آلية ، على حين هو عند أترابه من الشبان غاية لا يلتمسون
غيرها غرضاً من أغراض الحياة .

ولم يكد يتقدم الحديث بيننا فى هذه الشؤون حتى أقبلت الخادم
تزيل ما على المائدة من كتب لتهيئها للأطباق وآنية العشاء . وقد زالت
الكلفة بيننا ، وأخذت أسمع منه وأتحدث إليه كما يكون الأمر بين

إلفين قد بعد العهد بما بينهما من المودة والحب والمخالطة ، فليس بينهما
تصنع ولا تكلف ولا عناية بما يقولان .
وما هي إلا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم
نلبث أن وجدناها مشتركة بيننا ، وكلها متصل بخياتنا في الريف .

٥

قال لي في بعض ما كان يقول ، وقد هدأ نشاطه وانخفض صوته ،
ورقت لهجته ، وجعل يتحدث إلى كأنما يهمس همساً وكأنما يصدر
صوته عن نفس متأثرة أشد التأثر ، وقلب يملؤه الود والحنان ، ولو أني
استطعت أن أرى وجهه في تلك الساعة لما شككت في أني كنت
خليقاً أن أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات الحنان .

قال لي في هذا الصوت العذب : « هبني في القرية ، وهبك في
المدينة ، وهبني أريد أن أزورك لأقضي معك شطراً من النهار ، فأين
ألقاك ؟ »

قلت : « إنما يزار الناس في دورهم » . قال : فإني لا أريد أن
أزورك لأنني لا أريد كلفة ولا حرجاً ، ولا تقيداً بهذه الأوضاع التي
يتقيد بها الناس ، ولا سيما الشباب والصبية ، حين يتزاورون في الدور ،
حيث الآباء والإخوة الكبار . إنما أريد أن ألقاك حرراً ، طلقاً ،
لا تحسب حساباً لشيء ولا لأحد ، وأحب أن تلقى عن رأسك هذه

العمة الثقيلة التي تضطرك إلى وقار لا أحبه لك ، ولا أرضاه منك ،
وأن تخرج من هذه الثياب التي لا يلبسها إلا الشبان الذين تقدمت
بهم السن إلى ضحوة الشباب ، فأنت في آخر ليل الطفولة ، وفي أول
فجر الشباب . قد أخذت نفسك تتفتح للحياة وتبسم لها ، وتخرج
من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر الأشياء ، وأن تزنها وأن تحكم
عليها في هذا الغرور الجسيل اللذيذ ، الذي يحيل إلى الغلمان أنهم رجال ،
ويلقى في روعهم أن آراءهم موقفة دائماً ، وأن أحكامهم صائبة دائماً ،
وأن الكبار من الرجال يخطئون ، حين يسيئون الظن بهم ، ويروونهم
صغاراً ، ولا يشركونهم معهم في كبار الأمور .

ألق إذاً هذه العمة ، واخرج إذاً من هذه الجبة ، ومن هذا
القفطان ، وعد إلى ثوبك الفضفاض ، الذي كنت تلبسه قبل أن
تهبط إلى القاهرة ، والذي كان يمتاز من ثياب أترابك من أهل الريف
بضيق كفيه وتكسرها بعض الشيء عند آخرهما ، وبهذا التكسر المنظم
على الصدر ، وفي أعلى الظهر وبهذا الحزام العريض الذي كان يتصل
به عند الخصر ، ولكنه لا يحيط بالجسم كله ، وإنما هو قطعتان قد
خيطنتا على جانبي الثوب من يمين وشمال ، ثم وصلت إحداهما بالأخرى
أزوار من الصدف . عند ذلك هذا الثوب وضع على رأسك ذلك الغطاء
الرقيق الأبيض الذي يسمونه الطاقية وما هو بالطاقية وإنما هو شيء
يصطنعه المترفون من أهل المدن في الأقاليم يقلدون به بعض قلانس
الفرنجة ويسمونه الطاقية الإفرنجية .

عد إلى هذا الزى ، وسأخرج أنا من هذا الزى الأوربي وأعود إلى
الزى الذى كنت أصطنعه فى الريف حين لم أكن أذهب إلى المدرسة
فأدخل فى ثوب من الصوف ، مفتوح الصدر ، وأتخذ على رأسى
الطربوش ، كما يفعل المترفون من أبناء العمدة ، فأنت تعرف أنى ابن عمدة
وسأزورك ماشياً لا أركب لهذه الزيارة فرساً ولا حماراً ، لأنى أريد أن أكون
حرراً طقماً ، وأن أقضى معك وقتاً لا يشغلنى فيه التفكير فى فرس أو حمار .
عد إلى زيك القديم وسأعود إلى زى القديم وانتظر أن أزورك ،
وحدثنى أين ألقاك ، على ألا يكون اللقاء فى بيتك . فأنا أعرفه حق المعرفة ،
ولا أريد أن أجلس فى المنظرة ، ولا أريد أن أجلس فى ظل هذه
العنابت التى تقوم إلى جانبها ، ولا أريد أن ألعب فى هذا الفناء
الذى ينبسط أمامها والذى ترونه واسعاً وأراه ضيقاً ، والذى يحب أبوك
أن يجلس فيه إذا كان العصر ، والذى يؤثر سيدنا أن يقرأ فيه القرآن
كل يوم قبل أن تطلع الشمس .

إنما أريد لقاء حرراً ، فى مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا إذا
تحدثنا ، أو يسألنا أين تذهبان إذا أردنا أن نمضى أماناً وألا نلزم
مكاناً بعينه .

قلت وقد أثر فى نفسى حديثه وصوته وطعته وما أثار من الذكرى ،
فرجعت إلى ذلك الطور الذى كنت فيه حين فارقت المدينة لأهبط إلى
القاهرة ، ورجعت إلى ذلك الزى الذى وصفه والذى كنت أعود إليه
كلما عدت إلى الأقاليم .

قلت : فستلقاني إذاً في طريقك جالساً أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت في الحديث وفي النظر إلى من يأتي من الغرب ، أو من يذهب إليه ، وإلى النساء وهن يذهبن إلى الإبراهيمية ليمالأن جزارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رءوسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همساً بينهن ، أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح ، أو في الاستماع إلى حديث هاتين المرأتين اللتين تكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، إلا أن إحداهما تلاصقه والأخرى قد أقامت دارها في الناحية الأخرى من الشارع . أتعرفهما ؟ قال : كما تعرفهما ، فأما الأولى فرنوبية ، وأما الأخرى فأم محمود . كلتاهاما تجلس على باب دارها وتحدث إلى صاحبتيها ألوان الحديث ، في صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ولين ، وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا لحديثهما وليدخلوا فيه من حين إلى حين ، حين يكون الحديث دعابة ، وما أكثر ما يكون الحديث دعابة بينهما . فهما لا تحسنان في الحياة إلا الدعابة وكسب المال . قلت : فستلقاني جالساً على أحد هذين الصندوقين ، فقد تعودت أن أقضي وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما في أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص والوعظ ، لا ينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قراءتنا إلا حين تأتي امرأة أو فتاة تشتري بعض الملح ، أو الفلفل

أو الخيط ، أو ما يباع عندهما من سقط المتاع .
قال : فقد انحدرت إليك من المغرب ، ولم أكد أهبط من الجسر
حتى مررت بهذه الدور التي تعرفها فحييت حسن كوزو وهو جالس
أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبناؤه ، وهم يلغظون لغطهم المتصل ،
ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيته
لاستوقفني ولسألتني : فيم أقبلت ؟ وكيف تركت أبي ؟ وما بال أبي
لا ينحدر إلى المدينة ؟ وما أشك في أنه كان سيستبقيني ، ولعله كان
يلجّ علىّ في أن أتغدى عنده فهو حريص على أن تتصل المودة بينه
وبيننا ، ولكنني جزت الدار سالماً لم ألق أحداً ولم أتعرض لهذا الإكرام
الذي كنت أخشاه ؛ وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث إلى
صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه ، إنما كنت معتزلاً على صندوقك ،
قد انثنى أعلاك على أسفلك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس
من حولك قائمون ، منهم من يشتري ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من
يمنع طرفه زنوبة ، ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان
المارد ابن العملة ، يذهب في الشارع ويحيى ، متحدثاً متغنياً ، يلقي
نظره خلصة إلى هذه الحارة عن يمين الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامرأته
الشابة ، وحاماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .
وهأنذا أنتهى إليك فأضع يدي على كتفك ، وهأ أنت ذا تذعر
لمكاني منك ، ولكنك لا تكاد تسمعي أحييك حتى تطمئن إلى
وتبتسم لي ، وتدعوني إلى الجلوس ، ولكني آبي ذلك عليك ، وأنهضك

وأخذ بذراعك ثم نندفع معاً في هذا الشارع الذى يكاد يواجه بيت
زنوبة ونمضى معاً إلى القناة .

انظر ها نحن هذان قد بلغنا القناة ، فأما عن يميننا فحديقة
جرجس أفندى ، ثم المنحدر إلى بيتكم ، وأما عن شمالنا فخيام العرب ،
الذين اختاروا هذا المكان مضرِباً لخيامهم ، والذين يخفرون هذا
الطرف من أطراف المدينة . إلى أى الوجهين تريد أن نمضى ؟ أتريد
أن نمضى إلى يمين لنبلغ المدينة ، أم تريد أن نمضى إلى شمال نحو
الغرب لنبلغ الإبراهيمية ، فنأوى إلى ظل شجرات التوت ، أو نمضى
أمامنا في هذه الحقول التى لا تكاد تنتهى . أم تريد أن نعبر القناة فليس
عبورها شاقاً ولا عسيراً ، فهى جافة في هذه الأيام ، أأست تحس
من حولك هؤلاء الصبية ، وهم يلعبون فيها ، ويلتمسون ما تخلف في
طينها من صغار السمك ؟ إلى أين تريد أن نمضى ؟ إننا إن عبرنا
القناة ، لم نمض غير قليل في هذا الفضاء الواسع الطلق حتى نبلغ
الخط الحديدى ، فإذا عدونا فقد انتهينا إلى المدينة من طريق قريبة .
إلى أين تريد أن نمضى ؟

وما أراى محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنت تريد من غير
شك وأنا أيضاً أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فلانها يسيرة مألوفة ،
وهى طريق الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون إليها ، وهى خليقة
أن تقدم لنا من ضروب اللهو واللوان العبث والمتاع ما نبتغى . فليس
بيننا وبين حديقة المعلم إلا خطوات . ها نحن هذان قد بلغناها .

وآثرنا أن نميل إليها فنجنى من ريحانها ، ونقتطف من أثمارها ، ونستظل بأشجارها ساعة لنتحدث فيما تعودنا أن نتحدث فيه ، إنها لجميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة ، ولم يعمل فيها المنسقون ، وإنما هي حرة مطلقة ! ينبت فيها الزهر والشجر كما يريدان في غير قيد ولا نظام ، وإنها لجميلة حين تتقدم في رشاقة وخفة بما تحمل من زهر وثمر ، وورق نضر وأغصان لدنة إلى القناة ، كأنها تريد أن تهدي هذا كله إلى هذا الماء حين يجري فيها قوياً هادئاً موفور النشاط مع ذلك كأنه إله شاب من آلهة الأساطير .

أنا أعلم أنك تحب هذه الحديقة وتجد لذة في أن تخاو فيها إلى نفسك فتقص عليها ما تتصور من الأحداث والخطوب ، أو تعيد عليها ما تسمع من القصص والأحاديث . وما ملت بك إليها إلا لأنى أعلم أنك تحبها وتؤثر أن تقضى فيها ساعات بعيداً عن الناس ، قريباً منهم في وقت واحد . أنا أعلم أنك لا تحب العزلة الخالصة ، ولا تحب الخلطة الخالصة ، ولكنى أحس الآن كأن مكانك ينبو بك ، وكأنك لا تطمن إلى الحديقة أو كأن الحديقة لا تريد أن تتلقاك بما تعودت أن تتلقاك به من البشر والأنس والحنان .

أحس أن جسمك كله يضطرب كأنه يكره السكون ، ويدفع إلى الحركة دفعاً . ماذا تنكر من هذه الحديقة ؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة ؟ لم لا تريد أن تخلو إلى كما تخلو إلى نفسك ، وأن تقص على كما تقص على نفسك ما تعيده عليك الذاكرة أو ما يخلقه لك الخيال .

ها أنت ذا أشبه شيء بالجواد الجموح الذى يعرض شكيمته ،
ويضرب الأرض بسنابكه ، ويكاد يخرج من جلده مرحاً وشوقاً إلى العدو .
إلى أين تريد أن نمضى ؟

وهو يقول هذا كله فى لهجة جد واقتناع و يقين حتى ينسبى مكانى
منه ، ومكانه منى ، ومكاننا من القاهرة ، وحتى يقنعنى بأننا صبيان ، أو
شبابان نقصد إلى الزهرة فى ريفنا ذلك البعيد ، وقد سمعت منه ، وآمنت له ،
وهمت أن أجيبه ، ولكنه منطلق لا يريد أن يقف ، متدفق لا يريد أن
يهدأ ، يسأل ولا ينتظر الجواب ، وإنما يجيب وهو يمضى فى حديثه لا يلوى
على شيء ، وأنا أسمع وأتبعه ، وهو يسرع فى الحديث ، وكأنه يسرع فى
الحركة ، حتى يعينى سماعه ، ويعجزنى اتباعه . ولكنه ماض فى حديثه ،
ماض فى حلمه ، لا يقف عند شيء ولا يلوى على شيء . والغريب أنه
كان يتحدث فيثير فى نفسى مثل ما يثير فى نفسه من الذكرى . ثم
يتحدث عنى وعما أحب فكأنما أنا أنا تحدث عن نفسى .

قال : فإنك لا تريد البقاء فى هذه الحديقة لأن نفسك لا تنهى للخلوة
ولا للحديث الهادئ المطمئن ، وإنما أنت اليوم مهياً للحركة والنشاط
الجسمى ، وما أرى أنك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشى جهداً ثقيلاً ،
ولولا أنك شديد الحياء ، وأنت تخشى المصاعب والعقبات ، لآثرت العدو
ولكلفت بالجرى السريع . فهللم إلى الطريق العامة فليس لك فى هذه
الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعاً يشبه العدو ، ولكنك لم تطاوعنى إلا قليلاً .

وهأنذا أحس أن قدميك تنقلان وأن نشاطك ينال منه الفتور ، وأنتك تؤثر مشياً رزيناً هو إلى التلكؤ أدنى منه إلى الجلد والسرعة . لقد فهمت أن مكانك من هذه البيوت الأربعة التي تنتظم على شاطئ القناة في نسق بديع وقد امتدت أمامها حدائقها الواسعة ذات الشجر الملتف والأغصان المتدلية على الأسوار . وأنت تريد أن تسعى سعياً هيناً إلى جانب هذه الأسوار وأن تداعب بيدك هذه الأوراق الخضر النضر لأنك تجد في مسها راحة ولذة ونعيماً لنفسك وهدوءاً لقلبك الذي قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وأن تعبت بهذا اللباب الذي يتلوى على سور المأمور ، تريد أن تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ، ولكنك تعلم أنه لا يستقيم ، ولا يحب الاعتدال . ثم أنت تريد أن تطيل الوقوف عند بيت الملاحظ . وما أظن إلا أن نفسك تنازعك إلى أن تطرق الباب ، وتدعو عثمان أو محموداً . فمن يدري ! لعل أحدهما أن يستجيب لك وأن يدعوك إلى الدخول لتتحدث إليه ، أو إليه وإلى أخيه ساعة من نهار . إنك لشديد المكر ، وإن نفسك لشديدة الالتواء . لم تكذب على نفسك ؟ وتكذب على ؟ إنك لا تريد عثمان ، ولا تحب الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تدخل الدار وتقطع إليها هذه الحديقة العريضة متلكناً بعض الشيء ، متكلفاً بعض الأناة والمهل . حتى إذا بلغت الدار وأجلست في هذه الحجرة المتواضعة التي لا تمس القدم فيها أرضاً عارية كالتى تمسها حيث تلعب في بيتك أو حيث تجلس عند الدكان ، وإنما تمس أرضاً

قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك في هذه الحجرة لا تلقى إلى صاحبك إلا إحدى أذنيك ، أو بعض ما تستطيع أن تلقيه منها . فأما أذنك الأخرى فرسلة إلى آخر الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق . إنك لا تريد عثمان ولا تبتغي الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تسمع أحد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة في الغصن المورق اللدن . بل أنت أسعد الناس إن أتيح لك الاستماع إلى الصوتين جميعاً .

أيهما أثر عندك وأحب إليك ؟ صوت هذه الفتاة الناهد التي تسمى عزيزة والتي توشك أن تلعب معك ومع أخويها لولا ما تأخذها به أمها التركية وأبوها الألباني من تكلف الوقار والاحتشام . فهي تجلس إليكم وتسمع منكم وقد تشارككم في الحديث ، وقد يضحكها ما تخوضون فيه ، فإذا ضحكها يضطرب في الحجرة مشرقاً صافياً مضيئاً كأنه البلور . أم صوت أختها أمينة هذه التي نيفت على العشرين ، وجاوزت طور اللعب ، وتزوجت ثم طلقها زوجها فعادت إلى أسرتها كثيباً محزونة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادئ يثير في قلبك وجلاً ، وفي نفسك اضطراباً ، وفي أعماق ضميرك قلقاً لا تتبين أصله ، ولا سره ، ولكنك تخافه وتحبه معاً . أي الصوتين أثر عندك وأحب إليك ؟ إنى لأخشى أن تكون فاجر النفس ماجن القلب . مسرفاً فيما تتيح لضميرك من حرية . إنك لتحب الصوتين جميعاً ، وتألف الأختين جميعاً ، وتحب أن تنعم ما وسعك النعم بما تثيران في نفسك من هذه العواطف الحادة المهمة الغامضة ، وإنك

لتسمع لهما إذا تحدثتا أو ضحكنا أو جاءتا بشيء من الحركة فتعى عنهما هذا كله ، وتسجله في نفسك تسجيلًا حتى إذا عدت إلى دارك ، وآويت إلى مكانك الذي تعودت أن تعتزل فيه ، أخذت تعيد في نفسك ما سمعت من كلام ، ومن ضحك ، ومن غناء ، وأخذت تتخيل ما أحسست به من حركة ، وأخذت تتعمق هذا كله ، وتستخرج منه صوراً ومعاني وعواطف وخواف ، لا تحصي ولا تستقصى ولكنها تنسبك نفسك وأهلك ودارك وتنتهي بك إلى عالم غريب هو أحب إليك ألف مرة من هذا العالم الذي تعيش فيه . قل الحق ! ألسنت أصور ما تجد ، وأقص ما تحس ، وأحدثك بما تحب أن أتحدث إليك فيه ، ولكنك قد أطلت الجلوس بين عثمان ومحمود ، والاستماع لعزيزة وأمينة ، وهذا صوت المؤذن ينتهي إلينا داعياً إلى صلاة الظهر ، وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير ، ولئن بقينا لندعين إلى الغداء ، وأنا أعرف أن حيائك وأدبك يأبيان عليك أن تستجيب لهذا الدعاء ، وأن نفسك تنازعك إلى البقاء . وما أظن إلا أنك لو أرسلت نفسك على سجيئها لأقمت . ولا حتمت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمتع بعدها بساعات طوال ، تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنه وروعة وحنان . ولكن لا سبيل إلى الإقامة . وماذا نصنع بحياتنا ؟ وماذا نصنع بأدبنا ، وكيف تلقى أهلك ؟ وكيف تجيبها ؟ وكيف تثبت للومها العنيف حين تصور لك أن الفتيان الذين يحسن أدبهم لا يبقون في الزيارة إلى أن يدركهم الغداء ، ولا يستجيبون إلى الطعام ، إذا لم تسبق دعوتهم إليه .

هلم أيها الصديق البائس الحزين ودع أمينة وعزيزة ، فقد يتاح لك أن تراهما إذا كان الغد أو إذا كان المساء . فأما الآن فصدقني ليس لنا في هذه الدار مقام .

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار ، وأغلق من دوننا الباب ، ورجع عثمان ومحمود أدراجهما في الحديقة واستقبلنا القناة ، فوقفنا على شاطئها لحظة مترددين ، أنعود إلى حيث كنا بعد أن تقدم النهار ؟ أم نتمضي عن يمين إلى المدينة وإن عرضنا ذلك لشيء غير قليل من اللوم .

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو الخط الحديدي نسعى هادئين . أما الآن فإني أحمد جدك وحزبك وشجاعتك وإصرارك على أن تنصرف حين هممنا بالانصراف ، وإبائك على عثمان ومحمود وإبائك بنوع خاص على عزيزة وأمينة ، وقد كانوا جميعاً يلحون علينا في أن نبقى ويرغبونا في البقاء ، يعرض عثمان ومحمود علينا أن يظهرانا على ما عندهما من أعاجيب القاهرة ، هذه اللعب التي لا تنتشر في الزيف ، ولا يألّفها أهل الأقاليم ، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو . وتعرض علينا أمينة القراءة في بعض القصص ، وأنت مصمم على الانصراف برغم نفسك التي كانت تنازعك إلى البقاء نزاعاً شديداً .

على أني لا أفهم كالفك بالاستماع لعزيزة وأمينة ، وافتتانك بأحاديثهما هذه التي يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة في تألق وتكلف وتعمد للفتنة ، كأنما تريد كل واحدة منهما أن تدل على نفسها ، وتنبهنا إلى أنها ليست منا ، وإلى أننا لسنا منها في شيء ، إنما هي من هذا العنصر الممتاز

الذى لا ينطق الجيم كما نطقها ، ولا يحول القاف كما نحولها إلى جيم غليظة وإنما يحيلها إلى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع في الأسباع ، ولا يمتلئ فيه بالكلام يهدر به كما تهدر الإبل ، وإنما يضيق به ويتلطف في إرساله ويجريه هادئاً حلواً رقيقاً ، فيخرجه أحسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن إلقاء الجنادل والصخور . لا يعجبني شيء من هذا لأنى أراه تكلفاً وتصنعاً . ومن يدرى لعلنا إن رأيناها في القاهرة ، واستمعنا لها في بيتهما الطبيعية أن نجدهما أقل تكلفاً وأدنى إلى الفطرة ، ولعلهما يومئذ أن تجدنا إلى نفسى الغليظة سيلاً . أما الآن فإن قلبى مغلق دونهما إغلاقاً ، وإنى لأؤثر ألف مرة عليهم فتياتنا الريفيات ، وما يمتزج به من حياءٍ جلوه وخفر ناعم ، وحديث عذب على غلظته ، وصوت محبب إلى النفوس على ما يضطرب فيه من بعض الجفاء ، ستغضب وستثور وستنكر ذوقى أشد الإنكار ، ولكنى لا أتردد مع ذلك فى أن أعلن إليك أنى أؤثر كلمة بنت عالية وأخت غريب ، على عزيزتك هذه المتكلفة المتصنعة . وأؤثر خديجة بنت محبوبه وأخت على ، على أميتك هذه التى ترى أن ليس على الأرض امرأة تعدلها أو تدانى حظها من الرقة والجمال .

إنى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لا يجتلب ، ولا يشتري ، وإنما تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن الذى تحدث عنه المتنبي . أتذكر بيته ؟ إنه مشهور :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

وكان هذا البيت من شعر المتنبي قد أيقظ صاحبي من نوم عميق ،
ورده من هيام بعيد ، ونبهني أنا إلى مكاني منه ، وإلى مكانه مني . فما
كان لشابين جاهلين من شباب الريف أن يديرا بينهما مثل هذا الحديث
أو يذكرنا مثل هذا الشعر . وأين حديث الريف الساذج اليسير الذي
لا فلسفة فيه ولا تعمق من هذا الحديث الطويل الذي اندفع فيه صاحبي
كأنه السيل لا يرده شيء ، والذي أخذ يتكلف فيه ما تكلف ، ويصطنع
فيه ما اصطنع على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة في التفكير والتعبير .
فلما سمع صوته ينشد هذا البيت ثاب إلى نفسه ، وثبت أنا إلى نفسي وإليه ،
فلبت دقائق صامتاً لا يقول شيئاً كأنما كان يستجمع قواه المفرقة ، ويدعو
إليه نفسه الشاردة ، وينتظر أن يعود إليه عقله وقلبه من مدينتنا تلك في
الريف ، فلما استجمع من ذلك كله ما كان يريد قال في صوت هادئ
عميق : أين أنا ؟ وماذا كنت أقول ؟ ثم أرسل ضحكته العريضة المخيفة ،
ونبهض قائماً وهو يقول : أما إننا قد طعمنا حتى اكتفينا ! هذه الصبية
البلهاء قد أقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها أن تدعونا إليه ،
كأنما ظنت الحمقاء أني رأيتها أو سمعتها أو أحسست مقدمها وكأنما لم تشعر
أنا كنا غائبين نسعى في مدينة من مدن الريف ، وهذا خادمك الأحق قد

جلس على كرسية عند باب الغرفة وهو يغط معنًا في نومه العميق كأن
أحاديثنا لم تعجبه ولا تروقه ولا تصل إلى نفسه الغليظة المحجبة بحجب
الجهل والجفوة والغفلة . ثم تاب إلى ووضع يده على كفى وهو يقول : وأنت
ماذا أحسست من هذا الحديث ؟ ولم يمهلى ، ولم ينتظر منى جواباً ،
ولمّا اندفع يقول : ما أرى إلا أنك ظننت بي الجنون وأخذت تسأل نفسك
أين أنت ، وتمقت الساعة التي لقيتلك فيها وتلوم نفسك لأنك طاوعتني
واستجبت لدعائي ، وتشفق ألا تتاح لك العودة إلى أخيك . ومن يدري !
لعل المتنبي قد أنقذك حين جرى هذا البيت من شعره على لساني فردني
إلى نفسي وإليك ، ولعلك إن بقيت تسمع لي وأنا أمضي في هذا الهديان
كنت مضطراً إلى أن تنتهي آخر الأمر إلى الهلع والخزع ثم إلى الاستغاثة
والصياح ، ومع ذلك فثب إلى نفسك وامنحني بعض عنايتك وحدثني :
أليس هذا فناً من الشعر ونحواً من أنحائه ؟ لا تظن أن القدماء من الشعراء
كانوا يصنعون شيئاً غير هذا حين كانوا يقفون ويستوقفون على الأطلال
والديار ، وحين كانوا يذكرون ويذكرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها
من الأحبة والأخلاء ، وحين كانوا يتبعون الظاعنين ويصفون ما سلكوا من
طريق ، وما عرض لهم في سفرهم من خطوب ، وما أنفضوا من إبل وما وردوا
من ماء آجن وما انتهوا إليه من مرعى . إنمّا كانوا يصنعون مثل ما صنعت
ويهيمنون مثل ما هممت ، وينسون أنفسهم كما نسيت نفسي ، ويرسلون قلوبهم
كما أرسلت قلبي على جناحي هذا الطائر الخفيف الرشيق الذي يحسن
الإسراع ، ويحسن الإبطاء ، ويحسن المضي ، ويحسن الوقوف ، وهو الذكري .

وحدثني أفهمت شيئاً من حنين القدماء على وجهه حين قرأت ما قرأت من شعر امرئ القيس ، وغير امرئ القيس من هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويحيدون تصوير الوفاء . إنما هي عندك ألفاظ تقع في أذنك كما يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فإن أعجزك الفهم سألت كتاباً من كتب اللغة فلا ينبئك إلا بظاهر من معانيها . لا تكاد هذه الألفاظ تتجاوز أذنك إلى عقلك فضلاً عن أن تتجاوزها إلى قلبك وإلى ضميرك فتثير فيهما عاطفة أو هوى أو ميلا ، وتدعوك إلى أن تقدر الحياة كما ينبغي أن تقدر الحياة . صدقني أنكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الأدب ، وإنما تدرسون ألفاظاً ومعاني وصوراً ليست من الشعر ولا من الأدب في شيء .

قلت وقد أعجبني حديثه وأرضتني آراؤه ، ولكنني على ذلك ضقت بهذا السيل الذي لا يقف ، وأشفت من أن يمضي فيه كما مضى في الذكرى آنفاً ، ومن أن ننفق بقية الليل كما أنفقنا أوله ، وأشفت بنوع خاص من أن يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عما نحن في حاجة إليه من التفكير في العودة إلى بيتي ، فما أشك في أن غيبتني قد طال ، وفي أنها ستطول ، وفي أنها ستلحظ ، وفي أنني سأسأل عنها إذا كان الغد .

قلت ضاحكاً : فما يمنعك أن تعلن آراءك هذه إلى الناس في صحيفة من الصحف ، أو في محاضرة من المحاضرات ، بل ما يمنعك أن تلقى على الناس دروساً في الأدب ، فيسمع لك الشباب ، وسيتنفعون بما تلقى إليهم .

من حديث ؟ ثم ما يمنعك أن تمضى معى فى هذا الحديث أثناء العشاء ،
وبعد وأثناء الطريق ما دمت قد ضمنت لى أن تصاحبنى إلى بيتى البعيد !
قال وهو يضحك ضحكاً غليظاً : قل ما يمنعك أن تكف عن هذا اللغو
وأن تأخذ فى الجدل فقد زعمت لى أننا لم نجتمع هنا للغو وإنما اجتمعنا لنجد .
وهذا حق ، فما فى شىء من هذا كنت أريد أن أتحدث إليك ، وما
إلى شىء من هذا دعوتك الليلة ، وإنما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد
شط بى ودفعنى إلى الاستطراد ، فلنعد إذاً إلى ما كنا نريد أن نأخذ فيه
ولنقبل على طعامنا قبل كل شىء .

وأخذنا فى حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يعجل
عودتى إلى بيتى ، فقد كان الجدل الذى يريده صاحبى أنه يجب أن يكون
بينه وبينى تعاون فى الدرس ، يعلمنى بعض ما عنده ، وأعلمه بعض ما
عندى . فهو يرى أن أمرى فى الجامعة لا يستقيم إلا إذا تعلمت لغة أجنبية
وألمت ببعض هذه العلوم التى كنا نجهلها فى الأزهر جهلاً تاماً ، والتى
كان جهلنا إياها يخيّل لى وإلى أصحابى أننا نسمع من المحاضرين فى الجامعة
الأعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم إلا أيسر الأشياء وأهونها .

وهو كان يريد أن يمنحنى من ذلك ما ينقصنى ، لا يسألنى على
ذلك أجراً إلا أن أعوده معاشرة كتب الأزهر ، والتصرف فى علم الأزهرين ؛
وكانت علوم ثلاثة من علوم الأزهر تخلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهى
المنطق والفقه والأصول . فأما المنطق فقد كان أمره يسيراً ، وكنت أرى
أنى أستطيع أن أقرأ معه كتاباً من كتبه المختصرة . وأما الفقه والأصول

فقد كان أمرهما أعسر من ذلك وأشق . وأنتى لى أن أعلمه علماً لا أحسنه ،
وما أظن أنى سأحسنه فى يوم من الأيام ؟ وهو مع ذلك مصمم على أن
يدرس المنطق والفقه والأصول على أن يعلمنى الفرنسية ، ويقرأ معى ما
أحب من التاريخ وما أشاء من هذه الكتب التى لا بد من قراءتها لمن يريد
أن يعيش فى هذا العصر الحديث عيشة لا غرابة فيها . وكان حوارنا طويلاً
شاقاً ملتوياً فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد
يسفر الصبح . وما كدنا نبلغ حيناً فى أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن
ينبئ الناس بأن « الصلاة خير من النوم » ، وكنا لم نتم فعدنا أدراجنا .
وفى ذلك اليوم جلس معى إلى أستاذ الأصول رجل ليس على رأسه عمامة
بل على رأسه طربوش .

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقى فى الجامعة كل يوم إذا كان المساء .
وعلى أن نرتب أمرنا بيننا ، يعلمنى الفرنسية وأعلمه المنطق . ومن ذلك
اليوم لم نفترق حتى أتيح له أن يسبقنى إلى باريس .

كنا نلتقى فى قهوة بشارع قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن
تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة ، فنأخذ فى أحاديث مختلفة ،
وكثيراً ما كان يشاركنا فى أحاديثنا بعض الطلاب حتى إذا أقبلت ساعة
الدرس نهضنا إليه . أما هو فكان ينهض متثاقلاً دائماً ، وأما أنا فكنت
أنهض خفيفاً شديد النشاط . وكان يضحك من خفى . وكنت أضيق
بتثاقله ، وكان يقول لى هون عليك فليأتين يوم تنصرف فيه عن هذه
الدروس انصرفاً .

لأحسنه ، ولم أكن إذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه ، ولم يكن ينقص
م على أرا على الاستماع للأستاذ ، حتى إذا انتهينا من الاستماع انصرفنا إلى داره أو
رأى معي ما إلى قهوتنا في شارع كوبري قصر النيل فزعم لي أنه يعلمني الفرنسية ،
لمن يريد وزعمت له أنني أعلمه المنطق ، والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئاً ،
رنا طويلاً وإنما كنا نمضي في لغو مختلف متصل كهذا الذي صورت بعضه آنفاً ،
وقد كنا ننطق في هذا اللغو خير أجزاء الليل ، ثم نفرق . فأما هو فكان ينطق
عنا المؤذن بقية الليل في القراءة أو الكتابة ثم في نوم قليل ، ثم يصبح فيغدو على
أدراجنا ديوانه . وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل في تفكير طويل مضطرب لا يكاد
أسه عما يديقني النوم إلا غراماً ، فإذا دعا المؤذن إلى الصلاة أسرع إلى الأهر ،
ومضيت وجه النهار مستمعاً للأستاذة أو دارساً مع الطلاب حتى إذا أقبل
المساء التقينا كدأبنا في كل يوم .

ومن ذلك وانقضى العام الأول والثاني والثالث من حياتنا في الجامعة على هذا
النحو ، لم يتقدم هو في درس المنطق ولم أتقدم أنا في درس الفرنسية ،
قبل أن ولكننا تقدمنا في إدارة هذه الأحاديث الطويلة المختلفة التي تلم بكل شيء
مختلفة ، ولا تكاد تتقن شيئاً ، ولكنها تفتح القلوب لألوان من العواطف وهي
لمت ساعة النفوس لضروب من الخواطر ، وتغير الطريق التي كان كل واحد منا قد
أنا فكنت رسمها لنفسه في الحياة .

ت أضيف كان يريد أن ينطق حياته موظفاً يثقف نفسه ثقافة جديدة في كل
عن هذه يوم ويلتمس لذته في القراءة والكتابة والحديث . فأصبح أشد الناس
بغضاً لديوانه ، وزهداً في عمله ، ورغبة في أن يهجر مصر ويعبر البحر

إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم والادب الراقى ، وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخاً من شيوخ الأزهر مجدداً في التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده استعين على ذلك بما أسمع في الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد في الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافاً عن الأزهر ، ونفوراً من دروسه وشيوخه ، وحرصاً على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والادب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه ، ولم يكن لصاحبي ولا لي إذا التقينا حديث إلهذه الهجرة وأسبابها وإلهذه الأحلام العريضة البعيدة التي لا حد لها ، والتي تستأثر بنفوس الشباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . وحين تخيل إليهم آمالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ، وإني لجالس في بيتي لم أذهب إلى الأزهر ، وما كان أكثر تخلفي عن الأزهر في هذه الأيام ، وانقطاعي إلى خادمي الأسود الصغير ، يقرأ لي قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصلح معوجها في نفسي . يقرأ لي مرة في ديوان من الشعر ، ومرة في كتاب من كتب التاريخ ، وحيناً في قصة من قصص العامة ، وإني لجالس ذات يوم إلى خادمي الأسود وهو يقرأ عليّ ديوان البحري ، وإذا الباب يطرق طرقاً عتيقاً ، وإذا صاحبي يدخل وكأنه العاصفة ، وإذا هو يدعوني في صوت سريع إلى أن أنهض فألبس ثيابي

وأخرج معه ، وأن أسرع ، فإن العربنة تنتظرنا . وأحاول أن أسأله كيف
خرج من ديوانه وما هذه العربنة التي تنتظرنا ، وإلى أين يريد أن يذهب
بنا ، ولكنه لا يجيب ، وإنما يستعجلنى ويلج فى الاستعجال ، حتى إذا
تركته وذهبت لألبس ثيابى سمعته وهو يذهب ويحىء كالحجنون ، ويتغنى فى
صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم أخرج له فيخطفنى خطفاً . ويعدو
بى عدواً حتى يلقينى فى العربنة إلقاء ، ثم يأمر السائق أن يمضى إلى
مكان كذا حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئنى بأن الجامعة قد أعلنت فى الصحف
أنها سترسل طلاباً إلى أوروبا ، وقد حددت موعد الامتحان وأنه قد أقبل
إلى ، لآلى فلاناً وفلاناً ، وكلهم من أعضاء مجلس الجامعة ، ويجب أن
أوصيهم به خيراً . فهو واثق بأنه سيجوز الامتحان على أحسن حال ،
ولكنه يخشى أن يغلبه على الفوز بالبعثة أولئك الشبان الذين يتوسط لهم
أصحاب الجاه .

وما دمت يا سيدى تعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً من أصحاب الجاه وأعضاء
الجامعة فليس لك بد من أن تتحدث إليهم ، ومن أن تتحدث إليهم اليوم
ومن أن تتحدث إليهم أمأى . لهذا كله تركت عملى ، ولهذا كله استأجرت
هذه العربنة ، ولهذا كله استعجلتك هذا الاستعجال ، وما هى إلا أسابيع
حتى تم لصاحبى ما كان يريد ، وأصبح عضواً فى بعثة الجامعة وأخذ
يتهيأ للرحلة إلى باريس .

يونيو في . . .

ليتني لم أسمع لك أيها الصديق ، فقد كنت أؤثر أن أرتحل إلى فرنسا دون أن أذهب إلى ريفنا الحزين لأرى أبوي وأسرتي ولأرى قريتنا ، ولأعلاء نفسي من هذه المشاهد الجميلة التي نشأت فيها ، وكنت أرى أنني سأجد في هذه الرحلة القصيرة إلى الريف آلاماً يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شيء . وأنا أكره الوداع وأرى في السفر كما يقول بعض الشعراء الفرنج نوعاً من الموت ، ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيراً على علم به ، وانتظار له ، وإشفاق منه . وإنما أؤثر أن يفاجئني مفاجأة ، وأن يختطفني اختطافاً ، وأن أخرج من الحياة جاهلاً بخروجه منها كما أقبلت على الحياة جاهلاً بإقبالها عليها .

لقد كنت شديد التردد في الذهاب إلى الريف ، أحس من نفسي ضعفاً شديداً على احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتي في القاهرة بعيداً عنهما إلا كارهين ، فكيف بهما إذا علما أنني لن أقم في القاهرة . ولن تكون بينهما وبينى ساعات ، ولكني سأعبر البحر الملح العريض إلى بلاد نائية لا تحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات ، وإنما تحسب بالأيام . لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتي

في القاهرة ، هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها
كما نعيش ، والتي يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح في وقت واحد ، والتي
يجرى في شوارعها الترام والتي يكثر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتي
يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود إليه . فكيف بهما حين يعلمان
أنى سأقيم في ذلك البلد البعيد الغريب الذي لا صلة بينه وبيننا في لون من
ألوان حياتنا المعروفة . والذي لا يعلمان من أمره إلا أنه بلد الفتنة والعبث
وموطن اللهو والحجون ، أليس إليه يقصد السراة وكبار الأغنياء والمترفين
من سادات الريف إذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة من الذهب ،
فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل
شيء ، وهم يقضون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له
الأطفال ، وترتاع له نفوس الرجال . لقد كنت أقدر هذا كله حين
كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبرح الأرض ، ولكنك ما زلت
تلح على وتذكركي وتثير في نفسي العواطف والذكريات ، حتى استحيت
منك ومن أبوي ومن الناس ومن نفسي أيضاً ، ورأيت أنى لا أستطيع أن
أفارق مصر ، دون أن أرى هذين الشيخين . فن يدرى ؟ ! لعل أذهب
فلا أعود ، ومن يدرى ؟ ! لعل أعود فلا ألقاهما .
هنالك رحلت إلى الريف وليتنى لم أفعل ، فلم أكن أظن أنى سألقى
في هذا الريف ما لقيت في حزن لاذع وألم ممض ويأس لا صبر معه
ولا احتمال له .
لا أصف لك جزع أمي ولا سخط أبي ، فحسبك أن تعلم أن أمي

لا تصيب من الطعام إلا ما يقيم الأود ، وهي لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل . وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً وأنها لا تمسك الدموع ، وإنما ترسلها لرسالة حتى تنقطع ، وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذي كانت تحبه وتؤثره وتلخره للحوادث والناثبات . وهي تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا في الجامعة ، وهي تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون إليه ، وهي تلعن المدارس وهذا التمدن الذي علم مصر فتح المدارس ، وهي تأسف أشد الأسف وتندم أقسى الندم كلما ذكرت ذلك اليوم الذي أراد فيه أبي أن يقلد أباك ، فأخرجني من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك ، وأرسلني معهم إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم ، هنالك حيث طرحت زى الريف واتخذت هذا الزى الأوربي ، ووضعت على رأسي هذا الغطاء البغيض .

ولست أخفى عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول ، فهي التي ألقت في روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال في هذه المدارس ، وأن يلبسوا الطربوش ، وأن يلوا ألسنتهم بالوطانة الأجنبية ، وأن يصبحوا موظفين . وهي لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف إلى الكتاب حتى نحفظ القرآن ، ونحسن القراءة والكتابة ، ومن الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصل شيئاً من علوم الدين ، ثم نعود إلى القرية حيث الجد والعمل ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الجاه وبعد الصيت .

لأطيل عليك فأرى ثائرة إذا أصبحت ، ثائرة إذا أضحت ، ثائرة إذا

أقبل المساء ، نائرة إذا جنتها الليل ، نائرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً
وبكاء . فأما أبي فتذكر متنمر ، ينذر فيلح في النذير ، ويتلطف فيلح
في التلطف ، فإذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف ، خرج عن طوره
فأسخط من حوله جميعاً ، وجعل حياتهم لا تطاق ، وأقسم جهده أيمانه
ليقطع ما بينه وبينى من سبب وليعيش منذ الآن كأنى لم أكن له ابناً ؛
ولو أنى استمعت لنفسى أيها الصديق لما أقمت في هذا الجحيم إلا يوماً أو
يومين ، ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا
اليوم السعيد الذى تقلع فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذى ملك
على "نفسى كلها وقلبى كله .

ولكن كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيما هما فيه ، ولما أبذل
ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بعض الشيء ، ولأردهما إلى
بعض الطمأنينة ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين . وإلى لأجد
في ذلك ما وسعنى الجهد ، وأحتال لذلك ما واتتنى الحيلة ، وأستعين على
ذلك ببعض من له حظ من فهم ، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما
تقتضيه من تطور ، وبما بين حياتنا في هذا العصر وحياة آبائنا قبل أن
نولد أو حين كنا أطفالاً ، وما أظن أنى سأبلغ وحدى أو بمعونة هراء
الناس شيئاً ، فأبى مستيقنة بأنى إذا سافرت فقد فقدتني ، وأبى مقتنع
بأنى إن سافرت فقد قطعت بينه وبينى كل سبب .

في ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كتيب النفس ، شديد الحرج ،
ممتلئاً بهذا العجز المؤثس عن رضاء هذين الشيخين ، كارهاً أشد الكره

للدّار والقرية ومن فيهما ، فخرجت أهيّمْ في الرّيف ألتبس راحة النفس في
تعب الجسم ، ولست أزعج أُنّي خرجت أريد وجهة بعينها ، أو أَسعى
إلى غاية معروفة ، وإنما هو المشي ، والإبعاد فيه ، والخلوّ إلى النفس ،
والفرار من لوم اللّائمين ، وعذل العاذلين ، وإلحاح الملحين . وإني لأمضي
أمامي لا أحفل بشيء ولا أقف عند شيء ، وأكبر الظن أن كثيراً من
الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقوني فحيوني ، وما أشك في
أنهم قد أنكروني لأنّي لم أسمع منهم ، ولم أُرِدْ عليهم تحيتهم ، ولعل كثيراً
منهم قد تحدث إلى نفسه بأن هذا أول الشر ، وبإدارة الفساد ، إنه ليعرض
عنا ، ويكبر علينا ، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به إذا
ذهب إليها وعاد منها .

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم ، ولا أحسست مكانهم مني ، وإنما
كنت مشغولاً بنفسى عنهم وعن كل شيء . وإنك لتعلم أنّ كثيراً ما
حدثك عن كلفى بالخروج إلى الرّيف . والتروض في الحقول أثناء هذا
الفصل من العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشتد النشاط ، وحين
تنتشر في ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبدلات بحكم الفقر ،
يطوفن بالحقول ويلتصنن أقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب . إنك
لتعلم كلفى بالخروج في هذا الفصل ، وأنّي أجد لذة حارة حادة في
الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل
الرّيف حين يخرجون من أطوار الحمود والجمود . ويفنون في طبيعتهم هذه
ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج ، لهم جد الأداة وصدقها

واستقامتها وصبرها وإعراضها عن الشكوى ، وبعدها عن الملل والسأم . فما رأيك في أن هذا الجمال الذي يفتنني ويملك على قلبي ويحملني على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام ، لم يصل إلى قلبي ، ولم ينته إلى نفسي في هذا اليوم . فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات ، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطاً ومرحاً و يقيناً وثقة وإيماناً . إنما مضيت أمامي لا ألوي على شيء كأنما تدفعني قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبينها ولم أنتبه لها ، إلا فجأة حين رأيتني واقفاً جامداً وحين أنكرت من نفسي هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولي كأني أقفت من نوم عميق ، فما يروعي إلا أن أراني واقفاً أستظل بشجرات التوت عند الإبراهيمية ، هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن إذاً قد خرجت من دارنا ضيقاً بها وبمن فيها ، ولم أكن إذاً قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها ، ولم أكن إذاً قد همت في الريف التماساً للخلوة إلى نفسي والراحة مما كنت أظن من عناء ، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت في الريف أمامي لأنني لم أكن أجدر بدءاً من أن أزور هذه المدينة التي أنفقت فيها أحسن أيام الصبي ، ومن أن ألم بهذه الربوع التي ذقت فيها أطيب ما ذقت في الحياة من لذة قوية طاهرة بريئة من كل إثم .

إذاً فلتعد إلى نفسي النافرة ، وليشب إلى قلبي الجامح ، وليراجعني هذا العقل المضطرب المشرد لأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من

قوة الحس والعقل والشعور ، لأستمتع بالحياة القوية الحصبة في هذه
المدينة الحبيبة إلى نفسي ، الكريمة على قلبي ، ولأخذ منها بأعظم حظ
يمكن من المتاع ، أجعله زاداً لي في هذه الرحلة البعيدة التي أنا مقبل عليها
وأجعله ذخراً لي في هذه الإقامة الطويلة التي سأقيمها في ذلك البلد الغريب .
لأملأ إذاً عيني مما سأرى ، ولأملأ إذاً أذني مما سأسمع ، ولأملأ إذاً
نفسي وقلبي مما سأجد ، وإني لأنظر فلا أكاد أرى إلا الإبراهيمية تمتد
أمامي ، ويسعى فيها الماء هادئاً حلو السعى ، وإلا هؤلاء الناس
يسعون متفرقين ، منهم المقبل من الغرب يحمل إلى المدينة ما يبعث إليها
الريف من العروض ، ومنهم الذاهب إلى الغرب يحمل إلى الريف
ما تذيع المدينة فيه من التجارة . بعضهم راجل ، وبعضهم راكب ،
وقليل منهم يتحدث إلى رفيق ، وكثير منهم يغرق في الصمت كأنما
يفكر فيما وراءه أو فيما أمامه . وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء
أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد ، وامرأة أو فتاة تأتي من
حين إلى حين ، فتغمس جرتها في الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى
رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة في هذا الصمت
الذي يحجب نفوس النساء ، ويستتر ما يحول فيها من خواطر يود الرجل
لو يعرف منها بعض الشيء . وإني لأمد سمعي فلا أسمع إلا هذه الأصوات
المختلفة التي تأتي من هذه الحركات كلها ، وهذا اللحن الحلو المتصل
المتشابه الذي يأتي من هذه الأطيوار وقد استقرت على الغصون . وكأنها
وجدت لذة الراحة وأحست رقة النسم واستمتعت بخفض العيش بين

هذه الأوراق النضرة ، فهي تنغى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة .
وإني لأمد نفسي كلها فلا أحس إلا حياة هادئة قوية نقية تأتي من
كل وجه ، من الحركات التي أرى ، ومن الأصوات التي أسمع ، ومن
هذا النسيم الخفيف الذي يمسي مساً رقيقاً فيرد إلى النشاط ويحيي في
نفسى الأمل ، ويلقى عنى كل ثقل ويكاد يهين جناحين ويكاد يجعلني
طائراً بين هذه الطير . ويكاد يرسل صوتي كما أرسل صوتها بالغناء ، وأنا
أقيم هنا في ظل شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة وأستمع فيها
بالحياة وأذكرك أيها الصديق . ثم أتياً للمضى أمامي ولأنقض على
المدينة من هذا المنحدر ، فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً ، كما ينقض النسر .
وهأنذا أمضى وأقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة ،
قناتنا أتذكرها ؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسايره على الشاطئ
الجنوبي حتى إذا بلغت ذلك المنحدر الذي تعرفه ، ودعتها لحظة
وانحدرت إلى المدينة لأمر بهذه الأماكن التي كنا نألفها ، بالدكان
وببيت أم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضى حتى أبلغ شارعكم ولعلّي أقف
لحظة عند أوله فأحدث إلى بمة . أتذكر بمة ؟ تلك التي كانت
تسرف في النوم وتسرف في الغطيط ويسمع الناس غطيطها في أكثر
ساعات النهار ، وفي كل ساعات الليل ، إذا مروا أمام بيتها الصغير .
من يدري ! لعلّي كنت أقف لحظة عند هذا البيت فأعيب بصاحبته
وأسألها عن أصناف الجبن الذي تبيعه وجه النهار . ثم أهو لحظة بابنها
الأبله ذي الرأس الغريب ، أتذكره ؟ لقد كنا نسقيه أبا الرؤوس ، إنه

لا يتكلم ولا يسمع ، ولا يكاد يعقل ، من يدرى ! لعل كنت ألهو به لحظة ثم ألتى في يده أو يد أمه بعض النقد .

ثم أمضى في شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التي كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل ، وأقف عند بيتكم في هذا المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتلى أغصان هذه العنابت التي كثيراً ما لعبنا في ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحداثق والحقول . ومن يدرى ! لعل أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر إخوتك ، فكثيراً ما جلسنا عليها وكثيراً ما لعبنا الطاب . ومن يدرى ! لعل الذكري أن تملأ نفسي وقلبي ، وأن تنسني نفسها وأن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها ، ولعل أعتقد أني قد أقبلت لأزورك ، ولعل أطرق الباب وأنتظر أن أسمع من ورائه صوتاً معروفاً مألوفاً يسأل عن الطارق . وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصاً معروفاً مألوفاً يرحب بي ويدعوني إلى الدخول . ثم أنظر فأرى شخصاً لم أعرفه ولم آلفه يسألني من أنا وماذا أريد ، فأثوب إلى نفسي وأستأنف رحلتى وقد مثلت فصلاً من حياتي الأولى ووجدت في التمثيل مثل ما كنت أجده من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم أستأنف رحلتى فأمضى أمامي نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذي كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضى ساعات على شاطئ القناة أو في حديقة جرجس أفندي عن شمالنا ، أو في حديقة المعلم عن يميننا . فأرق في هذا المنحدر حتى ألتى القناة فأتابع شاطئها في طريقى إلى المدينة .

وكنـت أقـدر هـذا كـله وأقـدم لـنفسـى المـتاع بـهذا كـله وأنا أـمضى
أمامـى مـلتمسـاً مـخرج القـناة مـن الإبراهيمية . ولكن ماذا أرى ؟ وأين أنا ؟
وأين القـناة ؟ إنـى لأنـظر فإذا الإبراهيمية تـمتد وتـمتد ويـجرى فـيها المـاء هـادئاً
يـحمل الحـياة والـخصب ، ولكن شاطئـها مـن نـاحية المـدينة قد اعتـدل
واستقام ، فليس فـيه عـوج وليست فـيه فرجة يـخرج مـنها المـاء . أين
القـناة ؟ لقد كانت تـخرج مـن نـحو هـذا المـكان وكانت تـمضى غـير بـعيد
ثم يـقام عـليها جـسر صـغير تمر عـليه بـعض القـطارات . ثم تـمضى غـير بـعيد
وتـمضى مـعها فـتبلـغ هـذا المـنحدر الذى كان يـنتهى بـنا إلى المـدينة . أين
القـناة ؟ إنـى لا أراها ولا أجـد لها أثراً ، وإنما أرى شـوارع وأرى دوراً تـقوم
فـي هـذه الشـوارع ، وأرى مـعالم لم أـلفها ، ومناظر لم أراها مـن قـبل . أترانى
أخطأت المـدينة ؟ ومع ذلك فأنا أعرفها كما أعرف نفسى ، وأستطيع أن
أمشى فـيها وأهتدى إلى مسالكها المـختلفة دون أن أفتـح عـيني كما كنت
تـمشى فـيها أنت أيها الصـديق لا تـحتاج إلى أن ترى ولا إلى مـن يهـدك
الطريق . أين القـناة ؟ لقد سـلكت إلى المـدينة الطريق التى سـلكتها
ألف مرة ومرة ، فلست أشك فى أنى قد بـلغتـها وبـلغتـها هى دون غـيرها
مـن المـدن ، فماذا أصابها بـعدنا ، وأين ذهبت القـناة ؟ إنـى لأريد أن
أسأل فأجـد حـياء فى نفسى مـن السـؤال ، ولكنى أطـيل الوقـوف وأطـيل
النظر عـن يمين وشمال ، وأطـيل النظر مـن أمام ومـن وراء حتى يـخيل إلى
وإلى مـن كان يرانى مـن الناس أنى أبـله قد فقـدت الصـواب . مـ لا أملك
نفسى ، وإذا أنا أسأل عـن المـدينة وعـن القـناة وإذا أنا أسمع ، ويا شر

ما أسمع ! إني قد بلغت المدينة وإن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وإن
معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا أسمع ! معمل
السكر قد هدم ، وماذا بقي إذاً في المدينة ؟ أو ماذا جثت أرى في
المدينة ! ماتت القناة ، وهدم معمل السكر ! وغيرت المعالم ! وانتقل
أكثر من كنا نعرف في المدينة من الناس .

يا للحزن والأسى ! يا للوعة والخسرة ! يا لليأس والقنوط ! أبلغ
العنف بالزمان أن يححو هذا المقدار الضخم من حياة الناس في أعوام
قصار . لقد جد جيل وجيل في إقامة معمل السكر وإقامة ما حوله من
الدور ، بل من القرى . لقد عاش جيل وجيل ، بهذا المعمل ولهذا المعمل .
لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة . فكل هذا الجهد ،
وكل هذا العناء ، وكل هذه الحياة ، وكل هذه الذكرى ، وكل ما كان
على شاطئ القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم ، ومن
حب وبغض ، ومن أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع
وإخلاص ، كل هذا يذهب في أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع
اليد الواحدة ، كأن شيئاً من هذا لم يكن ، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته
الحياة في هذه الأرض من العواطف ، وكأن شقة لم تبتسم لما أنبتته هذه
الأرض من مناظر الجمال ، وكأن عيناً لم تبك لما شهدت هذه الأرض من
أسباب الحزن والأسى . يا للحزن اللاذع ! ويا للألم الممض ! ويا لليأس
المهلك للنفوس ! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق ، ماتت ودفن فيها أو
صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذي كان ينطلق فيها

فرحاً مرحاً هادئاً وادعاً مستبشراً يرسل البشر من حوله جيلاً يثير الجلال على جانبيه . مات هذا الإله الشاب فدفن في مجراه أو طرد هذا الإله الشاب وردّ عن مجراه وفنى في الإبراهيمية . فأصبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً ، لا يثير في نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجرى ألسنتهم بالحديث ، نسيه الناس ، ونسى هو الناس ، بل نسي نفسه أيضاً . إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم في المعابد ، فإذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً ، فقد هدم معبد هذا الإله الشاب ، وماتت القناة فمات هو أو نفي من الأرض وأصبح حديثاً كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث . أتدري أين أكتب إليك ؟ إنى أكتب إليك في مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره ، ولم يتبدل لأن المنفعة لم تأمر بتبديله ، ولأن يد الإنسان لا تكاد تجرؤ على أن تمتد إليه . إنى أكتب إليك عند المسجد ، عند بابة البحرى ، أتذكر هذا الباب ؟ هو الذى يخلل منه المترفون الذين لا يحتاجون إلى أن يمشوا بالمبىضة لأنهم يتوضأون في بيوتهم ، ولأن يمشوا بالمبىضة لأنهم يستحمون في بيوتهم ، أتذكر هذا الباب ؟ إنه ينتهى بك إلى قلب المسجد لا إلى فناءه ولا إلى الصحن المنبسط أمامه . إنك إذا دخلت منه لم تكدر تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الغنى الذى بناه . أتذكر هذا الباب ؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال ، فأنا أكتب إليك عند هذا الباب ، وأكتب إليك قائماً

لا قاعداً . وأكتب إليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجرى يدي بما تلقى هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقي .

لقد أطلت ولكني لم أحدثك إلا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكني لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر ، فإن ما رأيته لا يستحق الحديث ، وإنما الذي يستحق الحديث هو هذه المعالم التي أقبلت زائراً لها . فلم أر منها عيناً ولا أثراً ، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروى عنها خبراً . هذه المعالم التي جئت لأراها والتي لم أرها ، هي التي تستحق الحديث . لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه . ولن أتمه الآن . فقد آن لي أن أروح إلى قرينتنا حيث ينتظرنى الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتمه ، فما ينبغي أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيري من الذين نشأوا في المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس .

وأكتب إليك الآن من قرينتنا وقد بلغت مع الليل فألهاني ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسي من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت للهوت كما لهوت ، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحكك ينفذ إليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلاً ولا روية ، وإنما اندفعوا فيه اندفاعاً . افتقدوني وجهه

النهار فلم يجدوني وانتظروني حتى انتصف النهار ، وهم يظنون أنى قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من التزهة والتماس التروض والعبث في الحقول . ولكنى لم أعد مع الظهر ، ولم أعد مع العصر ، فلم يشك أحد فى أنى لم أخرج لتزهة ولا لتروض وإنما فررت منهم فراراً ، وعدت إلى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل .

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذى يملؤه السخط والغضب . وتملؤه الرقة والرحمة فى وقت واحد . لقد كنت ابناً عاقاً يرتحل دون أن يودع أبويه ، فكنت خليقاً أن أثير السخط والغضب والموجدة ، ولكنى كنت ابناً يرتحل إلى بلد نازح ، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان ، وكانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحدر من عيني أمى ، لا يعرف الناس أهى دموع الغيظ والحق أم هى دموع الوجد والحنين . وكانت غريبة هذه الألفاظ التى كانت تنطلق متصلة على لسان أبى ، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزناً لأن ابنه قد سافر إلى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود .

ثم كانت غريبة هذه العواطف التى ثارت فى نفسى حين بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيين يظهران السخط ، ومسرورين يتكلفان الحزن ، ومبهجين يتصنعان الاكتئاب . ففى قلبهما إذاً عطف على . هذا الغضب الذى أراه وأتأذى له ليس إلا مظهراً من مظاهر هذا العطف ،

ولوناً من ألوان هذا الحب ، وصورة من صور هذا الحنان ، وإذا فسأسافر إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذى سيصحبني في هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة . ولعل خروجي إلى المدينة لم يكن شرّاً كله وإنما كان فيه بعض الخير ، على كثرة ما أثار في نفسى من الآلام الملحة الباقية ، فلأول مرة عدت إلى القرية استطعت أن أظفر من أبوي بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف ، كأن عودتي إليهما من الرحلة القصيرة التي انقضت قد ألهمتهما عن تلك الرحلة الطويلة التي لم تبتدئ بعد . وكان أكثر حديثنا عن المدينة التي زرتها ، وعمّا تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشيوخ يتحدثان إلىّ في ذلك كله حديثاً هادئاً مطمئناً يغشاه حزن خفيف ، وتتردد فيه ذكريات مؤثرة ، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والأمل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت ، ومتممة في الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته في نفسى لهذه الحياة المتقضية وهذه العهود الماضية وهذه الذكريات التي ستبقى ما بقيت .

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته في نفسى والذي يجب أن تقيم مثله في نفسك لذلك العهد الذى مضى إلى غير رجعة ومات إلى غير نشور . ولا بد من أن أتم لك ما تم في نفسى من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذى ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التي تألف الظلمة في البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شيء مما كنت تعرفه وتألفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل شيء . فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتصقها في نفسك ، واجتهد إن استطعت أن تستحضر ما بقي من صورتها وأن تثبته ، فإنني أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالأصل . وأما بيتكم فلن تراه إلا في الخيال يقظان أو في الحلم نائماً . وكذلك هذه البيوت الحسان التي كانت تقوم على شاطئ القناة والتي كنت تحب أن تلخل بعضها لتحدث إلى محمود وعثمان ، ولتسمع لعزيزة وأمينة . وقد مضى أهلك إلى أقصى الصعيد ، وهبط أهل عزيزة وأمينة إلى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم إن شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون في بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسين قد انتقل إلى السودان بعد أن عصفت الموت ببيته فأذوى منه غصوناً وأذبل زهرات . لكنك تجهل أن « حسن كوزو » قد رحل إلى عزبة « المكسرين » وأنت لا تعرف عزبة « المكسرين » ، فهي قطعة من الأرض منحها الحكومة لعمال الدائرة السنوية الذين عجزوا عن العمل . فهم يقضون فيها ما بقي لهم من حياة .

فأما سيدنا فقد ارتحل إلى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذي لم يكن يعرف السكون . واستأنفت زوجه الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذي كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر . وفقدت عالية أم غريب زوجها

الضريير ، ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا يعلم أحد . وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة ، ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته . ولقيت زنوبة من دهرها شراً ونكراً . فخلتها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سراً ، وأثر عليها بنت أخيها الفتاة . ثم مضى الدهر في تنكره لها ومكردها ففقدت بصرها ، وعاشت أعواماً لا ترى النور ، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذى لا يكمل الصفو فيه . أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت ؟ فقد هدم الكتاب هدماً ، وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس .

نعم هدم الكتاب هدماً ، وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر ، ترك في نفسى من الآثار المؤلمة والندوب التى ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المهدم . فما تزال معالم الكتاب باقية ، على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتاب الآن طلل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من آثاره إلى الآن بقية مؤذية حقاً . لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه ، ونزع منها ذلك الخط الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والحصى ، إذا كان الفيضان ، لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤدى المدينة فى كل عام .

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن يمين الكتاب

وشماله . وعملت معاول الهدم فى الكتاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور ، فالمنظرة التى كانت أمام الكتاب والى كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب ، وأصبحت طلالاً مثله . والبيت الذى كان يقوم وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب وانتشرت هذه الأطلال فى هذا الفضاء انتشاراً محزناً مؤثساً ، ولكن مكان الكتاب بينها يثير فى النفوس أسى غريباً ولوعة محرقة حقاً . إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التى كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرعوا الحزب ، وإن عتبته ما زالت قائمة ، ولم تمح جدرانها كلها محواً ، وإنما بقي منها شىء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع أن تبين مواضع المقاعد الخشبية التى كانت مسندة إلى هذه الجدران والتى كان يجلس سيدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن شمالك إذا دخلت ، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر ، ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل إلى قش لا يكاد يتصل ، وحين يجود بعض الأغنياء بما يقوم مقامها .

قل ما شئت ، واعجب بالشعر ما أحببت ، واحفظ من وقوف الشعراء على الأطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للظاعنين ما استطعت أن تحفظ ، فسيظل هذا كله فى نفسك كلاماً أجوف لا يحتوى شيئاً ولا يدل على شىء ، حتى تقف موقفاً منذ حين كالذى وقفته بين هذه

الأطلال عن يمين وشمال ، وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة
 القوية الغنية الحصبة التي كانت تملؤها الحركة والنشاط ، وتضطرب فيها
 الأمان والآمال ، وتختصر جيلا مضى وتنبئ عن جيل مقبل ، فذهبت
 هباء وتفرقت في الأرض ، ولم يبق منها في هذا المكان إلا صدى
 لا يحسه الناس جميعاً ، ولا يقدررون وجوده ، وإنما يحسه مثلك ومثلي من
 الذين اشتركوا في هذه الحياة وتأثروا بها وملأوا من صورها النفوس
 والقلوب . لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجعلت أنظر حولي فلا أرى
 إلا هذه الأحجار المتناثرة وأمد أذني فلا أسمع إلا هذا الصدى الذي
 كان يضطرب في الفضاء ، ولكني مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعاً ، وقد
 أخذوا بحالهم في الكتاب ، هذا يقرأ ، وهذا يسمع ، وهذا يلغو ،
 وهذا يكتب ، وهذا يلعب ، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد
 فيه هذا اللفظ الذي كان يسمع من مكان بعيد فيدل سامعه على مكان
 الكتاب ، ولولا أنني ما زلت محتفظاً ببقية إرادة ، وفضل من القدرة على
 ضبط النفس لجننت ولتحدثت إلى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم
 يبحرون ويلعبون ، ولشاركتهم في الجري واللعب . لا أخفي عليك أنني
 ملكت نفسي فلم يذهب بها الجنون ، ولكني لم أملك عيني ، ففاضت
 الدموع . هممت أن أمضي ولكني لم أسلك الطريق العامة حيث كان
 يمتد الخط الحديدي ، وإنما هممت أن أمضي نحو بيت المأمور ، فما
 راعني إلا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح ، وإذا
 هما قائمتان كعهدهما تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل ، وتحملان

ما تعودتا حمله من التمر الذى لم يتم نضجه بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه فنعبث به ، ثم كنا نلتقطه فنأكله إذا قارب النضج ، ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه إذا تم نضجه ، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الأطلال المتهمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان من بهجة ، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما تجدان الوحشة فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات بعد حياة .

لقد وثقت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنى قضيت مثلها ، ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكرى وألم الحسرة ما لا أعرف أنى ذقت مثله قط . وإنى لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حباً ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى أخضعكم له ذات يوم أستاذ من كان أساتذتكم فى الجامعة حتى ذكر حلوان ثم استطرد إلى نخلتى حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من رام الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء ! لقد أجهدت نفسك فى ألى البحث ، ولقد كنت تعجب بشعر مطيع فى هاتين النخلتين ، ولقد كتبت كلاماً كثيراً عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ، ولقد كنت راضياً عن نفسك لأن الأستاذ كان راضياً عنك ، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع فى نفسك من أثر ، وماذا بعثتا فى قلبك من عاطفة ؟ إنما هو كلام يروى ثم يثير فى أنفسكم العجب والتهيب والغرور أكثر مما يثير فيها ملا الشعور الصادق بالجمال الصادق . أسرع أيها الصديق إلى مدينتنا فألم

بها يوماً أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب محواً ، وقبل أن تعجث
النخلتان اجتثاثاً ، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة ، على هذه
التيور العريضة التي دفنا فيها الصبا ، وما كان يملؤه من الفرح والمرح
ومن الحياة والنشاط . أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل
بظلهما ثم أنشد شعر مطيع ، فستفهمه وستذوقه وستشعر بما يصور
من الحزن كما شعر به مطيع نفسه .

ليت الأيام تتيح لي أن أحقق أمنية تضطرب في نفسي فأجمع
نقرأ من رفاقنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ما حوله من الأطلال وإلى
النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونحدث ونحيي عهدنا القديم ساعة
أو بعض ساعة .

لست أدري أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به ، وتشفق من
طوله ، وتكره أن تنفق في قراءته من وقتك ما أنت في حاجة إليه ،
لستعد لدروس من الدروس ، أو لتقرأ في كتاب من الكتب ، أو
لتحفظ من بعض الدواوين ، ولكني لم أكن أستسيغ أن أكتب إليك
أقصر مما كتبت ، ولولا إشفاق عليك ورثائي لك لكتبت إليك أطول مما
كتبت ، فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شيء ساكن من
حول إلا هذه الأصوات التي تبلغني من حين إلى حين ، أصوات
الخبراء حين يتنادون أو أصوات الديكة ، فتحسب أن الفجر قد لاح ،
فتصدح بنداؤها العذب لتلقاه بالتحية ولتنبي الناس بمطلعه . ثم تعلم
بعد ذلك أنها قد خدعت ، أو هي لا تعلم شيئاً وإنما يمضي بها النوم

في أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود إلى الصمت وتغرق فيه . ولعل أجرد
 نفسى من خواطرها ، وأسلها مما حولها سلاً ، وألقها في هذا السكون
 تعليقاً ، فأسمع أصداً تردّد ويدعو بعضها بعضاً ويحيب بعضها
 بعضاً ، وتصور لى ذلك الصدى الذى كنت أسمع فى الكتاب ثم
 أريد أن أحلل هذه الأصداً وأردها إلى أصولها ، وأتخذ لها أشخاصاً
 أحياء ، فيخيل إلى أنها نفوس الأجيال التى سكنت قريتنا على اتصال
 الزمن ، ويخيل إلى أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هى وحدها التى
 تزول ، وهى وحدها التى تتغير ، وهى وحدها التى تبحر الأرض . فأما نفوس
 الناس والحيوان والأشياء فتصلة بالأرض لا تبحر ، مضطربة فى
 الجو لا تفارقه ولا تزول عنه ، وإنما هى تملؤه حياة لا يشعر بها
 الأحياء إلا إذا سلوا أنفسهم من المادة سلاً ، وعلقوها فى سكون الليل
 تعليقاً . لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه ، ولقد سكن
 من حولى كل شيء ، وأنا لا أسمع دعوة النوم ولا أحس مقدمه ،
 ولا أرغب فيه ، وإنما أنا حريص كل الحرص على أن أبقى مع هذه
 الذكريات أتحدث إليها . وأسمع منها حين أتخذها موضوعاً لما أحمل
 هذا الكتاب إليك من حديث ، وما أظن أن الفجر سيلقانى نائماً
 بل أنا واثق بأنه سيلقانى يقظان ، ولولا أن يراع أهل الدار وأن تظن
 بى الظنون لخرجت لاستقباله فى الفضاء فأنا أكره أن يدخل على نوره
 من النافذة ، كأنه اللص ، وأحب أن ألقاه فى الفضاء الطلق ، فأملأ
 به نفسى وقلبي ، وأتمس فى ضوءه الهادئ الحلو هدوءاً لهذه الثورة التى

منهجاً

العقل

يكون

هذه

ضقت

ولم أحف

للنخلتين

الكتاب

ولا عز

السكر

الذنب

من مو

صديقي

ملتاعاً

أين ذه

فيه شه

لا أستطيع أن أكبح جماحها ، ولا أن أنتهي بها إلى السكون .
يا للحنن ويا للأسى ! يا للوعة ويا للحسرة ! ويا لليأس ويا للقنوط !
لقد أقبلت على الريف وكنت أظن أني سأملأ عيني وأذني ونفسي وقلبي
بما أحبيت وبما ألفت ، وأنى سأحمل هذا كله إلى حيث أريد أن أقيم
وراء البحر ، فلم أجد شيئاً ، وهأنذا سأعود إليك بعد أيام ، ثم أرحل
إلى مصر بعد أسابيع لا أحمل في نفسي إلا أطلالاً مهتمة ، ونخلتين
قائمتين صامتين تجدان الوحشة ، وتبعثانها من حولها ، ما أكثر
ما كنت أريد ! وما أقل ما وجدت ! وما أكثر ما يعث بنا من الآمال !
تقبل تحية صديقك اليأس .

* * *

وأنا أعترف أني تلقيت هذا الذي هو أشبه بالسفر منه بالرسالة في
شيء من الخوف والإشفاق من طوله ، ولكنني تعودت من صديقي
طول الحديث واختلافه وكثرة الافتنان فيه ، فأبقيته يوماً كاملاً لم أقرأه ،
ولم أعرف ما فيه حتى فرغت له آخر النهار فقرأته ، ولكنني لم أحس له
من الأثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته في هذه الأيام . وكان
الأمم بين صديقي وبينى كان بعيداً أشد البعد ، فقد كنت أقدر
الذكرى وأنس إليها وأحب التحدث عن العهود القديمة ، ولكنني لم
أكن أكلف بهذه العهود ولا أحفل ولا آسى عليها .
ولعل كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخرأ غير قليل ، فقد كنت
مفتوناً بحياتي في القاهرة راضياً عما كنت ألتقاه كل يوم من جديد الأمر ،

مبتهجاً بما كانت تتفتح له نفسى كل ساعة من العلم . وكان هذا النشاط
العقلى يبهرنى ، ويسحرنى ويدفعنى إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن
يكون سكرأ متصلاً . وكان تذكر العهود القديمة يؤذنى لأنه يخرجنى من
هذه الحياة اللذيذة بعض الشيء ، ويردنى إلى تلك الحياة التى طالما
ضقت بها أيام كنت صبيأ ناشأ فى الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ،
ولم أحفل بالخط الحديدى ولا بانتزاعه ، ولم أكتثر للكتاب ولم أعرف
للنخلتين خطراً . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد فى
الكتاب ولا فى النخلتين شعراً ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب
ولا عن النخلتين ولا عن القناة ولا عن الخط الحديدى ، ولا عن معمل
السكر . والله عز وجل قادر على أن يغفر لى الخطيئة ويعفو لى عن
الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديقى
من موت سيدنا بشىء من الابتسام وهز الكتفين . أما الآن فأرانى مع
صديقى متمسأ أصل القناة باحثأ عما ألفنا من الأحياء والأشياء ، حزينا
ملتاعأ بل يائسأ قانطأ ، أما الآن فلانى أقرأ هذا الكتاب فأسأل نفسى :
أين ذهب الكتاب والنخلتان ؟ وماذا قام فى ذلك المكان ، الذى قضينا
فيه شطراً من حياتنا لعله خير ما أتيج لنا أن نحيا .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فلا رأى للمضطر إلا ركوبها
ألقى هذا البيت بصوته الغليظ ومد قافيته مدّاً طويلاً . وهو
يضرب الأرض بعصاه ، ويلقى طربوشه على مائدة كانت أمامي ، ثم
جلس لم يبدأني بتحية ، ولم ينتظر أن أردّها عليه ، وكأنه اعتقد أن هذا
البيت الذي ألقاه على هذا النحو خير تحية يمكنه أن يهديها إلى ، وأن
دهشتي لمقدمه ، وانتظاري لتفسير هذا البيت ، والإبانة عما أراد به ،
خير رد عليه . وأكبر الظن أنه لم يكن يرى التحية والرد عليها إلا لوناً
من تنبيه القادم إلى مقدمه وتنبيه المقيم إلى أن أحداً قد أقبل عليه ، وما دام
هو قد بلغ من ذلك ما كان يريد فليس عليه بأس من أن يسند عصاه
ويتخفف من طربوشه ويجلس إلى المائدة التي كنت أجلس إليها مائلاً
الجو بضحكه العريض كما تعود أن يفعل كلما أتى شيئاً غريباً ، ثم يرفع
صوته بهذه الجملة التي يمتلئ بها بيتنا الصغير كله « هات الشاي يا غلام » .
ثم يستريح قليلاً من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من
حيث انتهى ، وهو إنما انتهى عند إنشاد البيت ، فيقول : والأسنة هنا
يا سيدي هي هذه الزيارات التي سننق فيها آخر النهار ، وأول الليل ،
حتى إذا ملأنا آذاننا من لغو الناس ، وملأنا آذانهم من لغونا . وقلنا
ما لا نعتقد ، وسمعنا من الناس ما لا يعتقدون ، وشبع بعضنا من الكذب

على بعض ، انصرفنا إلى خلوتنا تلك في أعلى الربوة ففرغنا لحدنا الذي
خلقنا له ، وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل ، وأظن
أنك لن تمانعني في أن نبداً زيارتنا بشيخك الأديب ، فإنني قد أحبيته
منذ عرفتته ، ولست أدرى أيجبني أم يبغضني ، ولكن ذلك لا يعنيني
فحسبي أني أحبه ، وأنني أريد أن أراه وأن أستمع إليه ، وأنني أريد أن
يكون ذلك في هذا المساء ، لأنني سأشغل منذ غد بما يصرفني عن
الزيارات . والخير أن توطن نفسك على أنك ستخرج معي الآن فلا تعود
إلى بينك إلا إذا أسفر الصبح ، وغمرت الشمس مدينة القاهرة بضوئها
الحار المحرق ، وإن لم يرتفع النهار . وما أحب أن تجادلني في ذلك أو أن
تنكره علي ، أو أن تتعلل بهذه التعلات التي لا تغني فإنني مصمم على أن
يتم ما أريد مهما تكن المصاعب ، ومهما تخترع من التعلات . ولولا أني
نهضت وأتيت حركة الذي يريد أن ينصرف ويترك له الغرفة وما فيها لما
انقطع هذا السيل المندفع عن التدفق ، ولما كف هذا الغيث المنصب عن
الانهمار . ولكنه رآني قائماً أتحوّل إلى باب الغرفة وقد رفعت يدي كأنما
أريد أن أضعهما على أذني ، فأغرق في الضحك ، ثم ردتني إلى مكاني وهو
يقول : « لك ما تريد فسأبلعك ريقك ، فقد يخيل إلى أني منذ أقبلت
لم أرحك ، ولم أرح نفسي من الكلام ، ولكن لا تلمني في هذا ولم غلامك
هذا الأسود الصغير ، فلو أنه أسرع بالشأى وشغلني به وبيع بعض
ما يصحبه من الطعام ، لانصرفت إليه بعض الشيء عن هذا الكلام
المتصل » .

ثم صمت متكرهاً وتعجلت خادمي فجاءه بما كان يريد ، واستطعت أن أتحدث إليه ، وأن أسمع منه كما يتحدث بعض الناس إلى بعض في هدوء واطمئنان وشيء من الرزانة والتفكير .

ولم أشك مع ذلك في أنه كان مضطرب النفس ، شديد الاضطراب مدفوع القلب إلى ثورة عنيفة لا يعرف منها مخرجاً ولا ينتهي منها إلى قرار . فقد أخذت أنعلل عليه وأظهر كراهة الخروج ، ثم أقيم الدليل لإثبات الدليل على أني إن خرجت فلا بد من أن أسرع إلى العودة لأنني لا أستطيع السهر في هذه الليلة . كان كلما سمع مني تعلل محامها محوياً ، وكلما سمع مني دليلاً نقضه نقضاً ، حتى إذا أعياه ذلك وضاق بهذا التمتع الطويل نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع إلى الغرفة التي كان أخي قد خلا فيها إلى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعاً ، ولم يكذب يده أخي حتى أنبأه بأنه سيضطجعي في بعض الزيارات ثم سيقضي معي أكثر الليل أو كله في حديث طويل ذي بال ، وخيبره ضاحكاً صاخباً بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا في هذه الغرفة أمام غرفته أو هناك في بيته البعيد على تلك الربوة مما يلي القلعة .

وكان أخي أشد الناس ضيقاً بالناس ، وأكثرهم نفوراً من الزيارة والزائرين ، وأشدهم بغضاً لهذا النوع من الحديث الطويل ذي البال ، الذي يظن أصحابه أن له خطراً ، وإنما هو وسيلة من وسائل قتل الوقت ، والانصراف عما ينبغي للطالب الجاد من درس وتحصيل . فلم يكذب يده أخي حديث صاحبي حتى أجابه متعجلاً أن أخرجه معك متى شئت وأعدده

متى أحببت . فلست أطلب إليك ولا إليه إلا أن تريحاني من لغوكما
الذى لا حد له ، فأخى يعلم ، ولعلك تعلم أيضاً ، أنى غارق فى
الاستعداد للامتحان .

قال ذلك وأعرض عنه إلى كتبه فعاد إلى جدلان مبهجاً وهو يقول :
لم تبق لك حجة ، وإنما أنت منذ الآن ملك لى ، فلا بد مما ليس
منه بد .

لم يكن بد من أن أذعن له ، وأنزل على حكمه وأطوف معه فى
بعض أحياء القاهرة نزور هذا لماماً ونزور ذاك فنطيل عنده الإقامة ،
وهو فى أثناء هذه الزيارات وفى أثناء الطريق التى كنا نقطعها من بيت
إلى بيت ، مندفع فى مزاح لا ينقطع بصوت مرتفع كثيراً ما كان يلفت
إلينا الناس ، وكثيراً ما كان يحملنى على أن ألح عليه فى أن يخفض منه
بعض الشيء وعلى أن أقسم له أنى لست أصم وأنى أسمع همسه فضلاً عن
حديثه المعتدل . وأن أحتج له على أن الناس ليسوا فى حاجة ولسنا نحن
فى حاجة إلى أن يشاركونا فيما نأخذ فيه من عبث وجد . وكثيراً ما اضطر
أصدقائنا الذين زرناهم إلى أن يظهروا الضيق بصوته المرتفع الذى
لا يخفى شيئاً ، ولا سيما هذا المزاح الغليظ المسرف فى الحرية الذى يرتفع
به صوته حتى يخشى أصحاب الدور أن يبلغ النوافذ وأن ينتهى إلى آذان
لا ينبغى أن ينتهى إليها .

ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتى له هذا المساء ، لذيدة حقاً
متعبة حقاً ، كانت لذيدة لهذه الفنون المختلفة التى كان يطرقها فى أحاديثه

المتصلة ، ينتقل من بعضها إلى بعض في غير تمهيد ، ولا تنبيه ،
ولا مناسبة ، وإنما هو الاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت ،
ولا كما أفهمه أنا ، معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التي تدعو إلى
الشرح والتفسير ، وتبيح الانتقال من موضوع إلى موضوع ، وإنما هي
مناسبات خفية كان يجدها هو ولم نكن نجدها نحن . فكان استطراده
من موضوع إلى موضوع ، أشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطئ
القناة إلى شاطئها الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبه الجسر .
وكنا نجد في استطراده هذا ما يلهي ويضحك ويعجب ، وكنا نقدر
دائماً أنه إذا وثب من موضوع إلى موضوع أو قفز من حديث إلى حديث ،
فلن يعود إلى الموضوع الذي وثب منه ولا إلى الحديث الذي تجاوزه ،
ولكنه كان يقهرنا فلا ينسيه موضوع موضوعاً ولا يشغله حديث عن
حديث ، ومن أجل هذا استحالت اللذة التي كنا نجدها في الاستماع
له إلى تعب مضمّن للعقل ، منهاك للقوى . ويكفي أن تتصور رجلاً
يسير بك أو يعدو بك في طريق ثم لا يلبث أن يعدل بك إلى طريق
أخرى ثم لا يلبث أن يردك إلى الطريق الأولى فيعدل بك إلى طريق
ثالثة ، وهو يمضي في ذلك جاهداً متصل الجهد ، لا يريح ولا يستريح .
فأنت واجد في هذا لذة ، وأنت مستقبله بالنشاط والمرح ، ولكنك
لا تلبث أن يدركك الإعياء والسأم وأنت تتمنى على صاحبك أن
يعفيك من هذا الاضطراب أو يمضي بك على صراط مستقيم .
وكم تمنينا وكم ألحنا في التقي ، لكن عقل صاحبي كان قد

ركب على هذا النحو ، فلم يكن يستطيع أن يمضي في تفكير أو روية أو حديث دون أن ينحرف يميناً أو شمالاً ثم يعود إلى طريقه الأول ليعود إلى الانحراف عنها . ومن يدرى ! لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق أو الأمور المعقولة التي تعمل فيها عقول الناس لا تستقيم ولا تسمح بأن يستقيم التفكير فيها ، وإنما هي تنحرف وتعوج وتلتوى وتكره العقول على أن تسايروها في الانحراف والاعوجاج والالتواء ، ولعل عقولنا نحن أوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الأداة ، فهي ترى الأشياء سهلة ميسرة ، وتسلك في التفكير طرقاً معتدلة مستقيمة وتتعب من الانحراف والالتواء ، أى من التفكير الصحيح . ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبي إذا فكر أو كتب أو تحدث . فإذا أضفت إلى هذا صوته الذي لم يكن يعرف الخفوت ولا يحب الهمس ، وإذا أضفت إلى هذا أنه صمم في هذا المساء على ألا نركب عربة ولا نتخذ تراماً ولا نستعين بأداة من أدوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لأنه قد أزمع أن نجن في هذا المساء . وكان الجنون عنده أن نهيم في الأرض حتى إذا أجهدنا المشي ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى يشتهي بنا الإعياء إلى أقصاه . أقول إذا لاحظت هذا كله ، وأضفت بعضه إلى بعض لم تشك في أني كنت متعباً مكثراً حين بلغنا منزله في أعلى الربوة مما يلي القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جدال في أني لو ملكت يدي ونفسي — كما يقول الفرزدق — لتخلفت عن مرافقته ، ولتركته في

بعض الطريق ، ولكنه قد احتاط لذلك عامداً أو غير عامد ، فأبى على أن أصطحب غلامى الأسود الصغير ، وقال ارفق به ودعه يسترح ، ولعل أخاك أن يحتاج إليه . وما دمت ستنفق الليل معى ، وما دمت سأردك إلى بيتك مع الضحى فلستنا فى حاجة إلى رقيب يسمع ما نقول ، أو يحصى ما نهذى به ، وقد لا نكون فى حاجة إلى أن نسمع غطيطة حين يطول عليه حديثنا ، ويثقل عليه سهرنا فيأخذ نومه العميق ، ويهوى به عن كرسية إلى الأرض كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار فى بعض قضايا المنطق التى كنت تراها واضحة كل الوضوح ، وكنت أراها أنا غامضة كل الغموض .

واستطاع على هذا النحو أن يخرجنى من غير خادى ، وأن يتحكم فى أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد . حتى إذا انتهى بى إلى داره نحو منتصف الليل كنت محطماً أو كالمحطم ، وكنت لا أتمنى إلا مجلساً أستريح إليه من هذا العناء ، وكنت واثقاً أنى لن أبلغ غرفته الحرام ولن أجلس على ذلك المجلس من الخشب تغطيه الوسائد . حتى أنثنى على أحد جنبى وأستسلم للنوم .

ولكنه لم يمكنى حتى من هذا ، فأكاد بابه يفتح لنا ، وما كادت خادمتة تهدينا بمصباحها الضئيل إلى غرفته الحرام حتى أقبلت بما عندها . وليتها لم تفعل . فقد أقبلت بإبريق الشاى ومن حوله قطع من فطير الريف . وأقبل هو على الشاى يصبه فى الأكواب وهو يقول فى صوت ماكر : هذا هو الشاى الذى تعتمدون عليه فى إنفاق الليالى البيض حين

يطلب إليكم الدرس ألا تناموا . والدرس يا سيدى يطلب إلينا فى هذه الليلة ألا ننام، فاشرب من هذا الشاى واستعن عليه بهذا الفطير حتى إذا أخذت من الراحة والغذاء والرى بنصيب أخذنا فى درسنا المعضل العويص .

وقد كنت متعباً مكدوداً ولكنى كنت جائعاً ظمآن أيضاً . فلم أجد قدرة على الامتناع عن أخذ ما كان يقدم إلى من طعامه الثقيل ، وشرابه الذائد للنوم . وأقبل هو على ما حملت الفتاة، فأصاب منه فى غير رفق ولا اقتصاد، حتى إذا أحس أن معدته قد استقرت فى جوفه ، وأن أعصابه قد تنهت بعد الحمود، أخذ فى حديثه الذى كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التى كانت تلتوى بنا وتحملنا ألوان العناء منذ العصر . وكان انتهاؤه إلى الأخذ فى هذا الحديث بعد الجهد الذى لقينا ، والمشقة التى احتملنا ساعات متصلة ، أشبه شىء بخلاص الأم بعد أن ثقل عليها الوضع ، وابتلاها بالآلام المضنية المنهكة . وكان صوته وهو يأخذ فى هذا الحديث هادئاً يحاول الرقة وتجرى فيه عذوبة مؤلمة بعض الشىء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض أو يدخل فيه . قال : أتعلم فيم أرقتك الليلة وكلفتك ما كلفتك من هذه الأهوال التى لم تكن تنتظرها ولا تحب أن تلقاها ؟ قلت : لا ، وإنى لأنتظر أن أعلم ذلك منذ عزمت على فى الخروج معك ، ولو أنك استمعت لى وأردت لى الراحة ، لألقيت إلى حديثك منذ خرجنا ولأرحت نفسك وأرحتني من هذا العناء الطويل .

قال : لم يكن ذلك يستقيم يا سيدى فلكل شىء موعده وإبانه . وهذا الحديث لا يصلح له إلا الليل إذا تقدم وتجاوز نصفه وغمر كل شىء بهدوئه العميق . على أن جهلك لن يذهب عبثاً ، فإنى أعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجد فى حل المشكلات لذة ، فإنك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت أن تواجه مسائل المنطق والفلسفة والأصول . أيهما أهون أن يحتمل : الظلم أم الكذب ؟ ولست أخفى عليك أيها القارئ أنى وجدت حين سمعت هذه المسألة ، ولم أستطع أن أسرع إلى الإجابة عنها . وظن هو أنى أفكر فأمهلى لحظة ثم سألتى عن رأى فقلت : لا أدري لأنى لا أفهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح ، والخير للرجل الكريم الفاضل أن يتجنبهما معاً . قال : فإن لم يكن له بد من أحدهما . قلت : دعنى من الأمور العامة ، وألق إلى حديثك فى صراحة ووضوح فلعلى أفهم عنك ولعلى أستطيع أن أرد عليك . قال فى ضحك هادئ : يظهر أنك فاتر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولأنبك قبل كل شىء بأنى إنما أرقى وأرقتك معى هذه الليلة لأنى سأصبح بطلاً قبل أن ينتصف نهار الغد . وأنا لا أريد أن أنتظر البطولة نائماً ولا غافلاً ، وإنما أريد أن أنتظرها يقظان ، وأن آخذ لها أهبتها وأستعد لها كما يستعد الناس لعظام الأمور . وأنا أعلم أنك ضيق بى وبهذا الكلام الذى لا ينقضى والذى لا يفصح عن معناه ، ولكنى أقسم لك جاهد أنى لا أمزح ولا أهذى ولا أريد العبث ، وإنما أسوق إليك حديثاً كله

حق وصدق وصواب . فلن يتتصف نهار الغد حتى أكون قد بدأت بطولتي وأقدمت على عمل ذى بال . ولست أزعج أني سأكون قد بدأت بطلاً من طراز الإسكندر أو قيصر ، ولكني سأكون بطلاً على كل حال ، سأكون بطلاً لقصة من القصص لتكون تمثيلاً أو لتكون قصصاً مرسلات ، ولكني سأكتب الصفحة الأولى منها قبل أن يتتصف النهار غداً .

وكان يمضى فى حديثه هذا مستأنياً مستثنياً حتى أخذت أسأل نفسى أجنون هو : ولكنه أسرع فردنى إلى شيء من الاطمئنان . قال : أتعرف أن نظام الجامعة يقضى على أعضائها ألا يتزوجوا حتى يعودوا من أوروبا ؟ قلت : نعم . قال : ألم يخطر لك أن هذه القاعدة قد تؤذيني وتضطرني إلى بعض الحرج ؟ قلت : وما أنت وهذه القاعدة . قال : فأنت تجهل إذاً أنني زوج . وهنا ظهر على دهش صادق لأنى كنت أجهل أن لصاحبي زوجاً ، وما كان يخطر لى أن امرأة تستطيع أن تحتل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت أستطيع أن أتصوره إلا رجلاً مضطرب الحياة ظاهر اضطراب التفكير ، ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره إلى هذا الاضطراب ، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت أرى أنه يقضى نهاره كما رأيته يقضيه يعمل فى ديوانه قليلاً ويلغو مع الناس كثيراً . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الإنتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم .

فلما رأى ما ظهر على من الدهش والإنكار أغرق في الضحك . وقال :
لقد كنت تظننى طالباً مثلك أحيا حياة الطلاب ، ولكنك تعلم أنى
موظف وأن لى بيتاً كبيراً وأنى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم
يخطر لك أنى لم أكن أستطيع أن أستكمل ما ينبغى لمثلى من الحياة
إلا إذا اتخذت لى زوجاً . مهما يكن من شىء يا سيدى فأنا متزوج
وقد ظفرت بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من أن أمضى العقد
إذا كان النهار ، ومن أصول هذا العقد ألا أكون متزوجاً ، وألا أتزوج
حتى أعود . فأنا إذا مضطر إلى إحدى اثنتين . إما أن أكذب
على الجامعة وأتورط فى التزوير وأتعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير
من الشر إن ظهر أمرهما . وإما أن أظلم امرأتى فأطلقها ، فماذا ترى ؟
وكيف المخرج من هذه المشكلة ؟ وأحب أن تعرف قبل كل شىء بأنها
مشكلة معضلة حقاً ، وبأنها خليقة أن تكلفك ما كافتك من الجهد ،
وتحملك ما حملتك من العناء ، وتورقك مع صديقك ليلة كاملة . قات :
فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل هذه المشكلة العنيفة بما
ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والأناة . قال : فإنى أنفقت
وقدأ غير قصير فى الروية والأناة ، وأنفقت جهداً غير يسير فى التماس
الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما أملك من الوقت ، وقد انتهى ما كنت
أملك من الجهد ، ومن أجل هذا دعوتك لأستعين بك على الخروج
من هذا المخرج الذى لا أدرى كيف يكون الخروج منه ، إن من
اليسير أن أزعج للجامعة إذا كان الصباح أنى أعزب وأن أرسل امرأتى

إلى الريف لتقيم فيه حتى أعود إليها إن أتيحت لي العودة . وما أظن أن هذا الكذب سيظهر ، وما أحسب أنه إن ظهر استتبع عواقب ذات خطر ، فإذا يعنى الجامعة من أمرى إن عرفت أنى متزوج وأنى قد كذبت عليها ما دمت لا أصطحب زوجى إلى حيث يجب أن أفرغ للدرس ، وما دمت سأجعل بينها وبينى هذه الآماد البعيدة فى البر والبحر . وقد يكون هذا الكذب مردولاً ، وقد يكون منافياً لأخلاق الذين يريدون أن يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن أكذب رغبة فى الكذب ، ولا تعلقاً به ، ولا حرصاً عليه ، ولا إثارة لغش الجامعة وتضليلها ، وإنما أكذب إن كذبت رغبة فى العلم ، وبها لكأ عليه وحرصاً على أن أغير حياتى وأجعل لها معنى وقيمة وخطراً وأثراً فى منفعة الوطن . والكذب مردول إلا أن ينتهى إلى نفع وإلى نفع صحيح ، وأن يحقق مصلحة ومصلحة قيمة ، فإذا ترى ؟ أليس هذا الكذب خيراً من الظلم الذى أقدم عليه إن طلقتم امرأتى مع أنها لم تأت ذنباً ولم تقترف إثماً ولم تدفعنى إلى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره ، ولكنها لم تصرفنى عنها لأنها تؤمن بأنى لا أعزم إلا بعد تفكير صادق ، وانتهاء إلى رأى مصيب . وما أظنك تقترح على أن أصدق الجامعة وأظهرها على جليلة الأمر . فإنى إن فعلت لم يكن لهذا من أثر إلا أن تخيب آمالى كلها ، وأن أستئثس من رحلتى ، وأطمئن إلى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لا نفع فيها ولا غناء . وأنا أعلم حق العلم أنى لا أملك هذه الشجاعة ولا أحتمل هذه الحياة ، وأنى إن صرفت

عن هذه الرحلة بعد أن مدت لى أسبابها وهيئت لى وسائلها ميت
من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل
نفسى إن ملكنى الغضب ، وسيقتلنى الحزن واليأس إن أتيت لى
الصبر والاحتمال ، فالغ هذا الفرض إلغاء وامحه محواً فليس لى بد
من أن أكذب على الجامعة أو من أن أطلق امرأتى لأكون صادقاً ،
فأختر لى وأشر على .

قلت وقد أنسيت كل ما كنت أجد من تعب وجهد ، وأنسيت
الوقت وأنسيت المكان الذى أنا فيه ، وشاقنى علاج هذه المشكلة
حتى ملك على أمرى كله ، وحتى أحسست كلفاً بالأخذ والرد والحوار ما
أحسسته قط فى درس من دروس العلم ، وقد لا يحسه شباب هذا الجيل
الذى تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات
بعد أن اتسعت حياتنا وبعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة
الغربية وقرأنا من أدبها وفلسفتها الشيء الكثير . قلت : فى لى لا أرى
لك الظلم بحال من الأحوال ولا أفهم أن تحمل امرأتك ذنباً لم تجنه ولا أن
تحمل نفسك هذا الإثم الثقيل ، ومع ذلك فى لى لا أرضى لك الكذب
ولا أعينك عليه ولا آمن عليك شره وآثاره السيئة . قال متضاحكاً :
فأنت إذا ترضى لى أن أموت . قلت : بل أرضى لك أن تكون رجلاً
وأن تؤمن بما تلح فى الدعوة إلى الإيمان به ، من أن ظروف الحياة
أقوى من إرادة الإنسان ومن أن المثل القديم لم يعد الحق حين قال :
« لا بد مما ليس منه بد » . ومن يدرى ، لعلك تستطيع أن تصور

للجامعة أمرك كما هو وأن تحملها على أن ترضى منك هذا الزواج
الذى لن يكون له فى حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفاً . قال : فإنك
تعلم حق العلم أن الجامعة لن تغير نظامها من أجلى ، وأنى لم أنجح
وحدى فى الامتحان ، وأن من ورأى اثنين يودان لو تقطعت بى
الأسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها أحدهما من دونى . فأنا إن صدقت
الجامعة ، مضى برحلتى من غير شك ، وإذا خيل بينى وبين هذه الرحلة
فقد خيل بينى وبين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس إلى هذا
الصدق من سبيل . وأنت تخطئ إن ظننت أنه تحمس الشباب
أو أنه التعجل والتقصير فى التفكير ، فأنا أعرف نظام الجامعة هذا قبل أن
أقدم على الامتحان ، وأنا أفكر فيه منذ أعلنت الجامعة إلى هذه
البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس إلى هذا الصدق
الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أضارح الجامعة
بجلية الأمر . قلت : وإذا ؛ فقيم تستشيرنى وقد أجمعت أمرك ووطنت
نفسك على الكذب ؟ قال : كلا يا سيدى ، لم أوطن نفسى على
الكذب ، ولو قد وطنت نفسى عليه لأمنت فيه ولأخفيت جلية الأمر
عليك ولاجهدت فى إخفائها على نفسى ، ولكنى قد وطنت نفسى
على الظلم ، فأنا أريد أن أكون صادقاً ، حين أتحدث إلى الجامعة ،
إذا كان الصباح ، وأن أكون ظالماً لنفسى ولامرأتى . قلت : فإنى
أرى فى هذا إثماً بشعاً واستباحة قبيحة للشر ، واعتداء على حق من
لا تملك الاعتداء عليه . قال وهو يضحك حزيناً : وأنت مع هذا

أزهرى تدرس الفقه وتعرف أن الطلاق مباح وأنه أبغض الحلال إلى الله ، ولكنه مع ذلك حلال لا خطيئة فيه ، ولا إثم على الذين يقدمون عليه . فأمر الزواج عندنا ليس إلى امرأتى بعد أن قبلته وهو ليس إليها وإلى ، إنما هو إلى وحدى ، فأنا أستطيع أن أمسكه إن شئت وأستطيع أن أحل عقده إن أردت ، وأنا أريد أن أحل هذه العقدة لا إثارة للطلاق ولا رغبة عن امرأتى ولكن إثارة لما هو خير من الزواج ولا هو خير من الزوج وإن كانت خليقة بالحب والمودة والعطف ، إثارة للعلم ورغبة فى رقى النفس والعقل ، قلت : فإنى أخشى أن يكون هذا كله غروراً ووحياً من وحى الأمانى ، وما أدرى أيهم خير : هذا العلم الذى تحدث عنه كأنه شيء لا يدرك إلا إذا تكلفت له ما ستتكلف من الشر ، أم هذه الزوج التى أصفقت ودها ومنحتك حبها ، ووقفت حياتها عليك ، وجعلها الله رحمة لك وسكناً . ومن يدري ! لعل تحصيل هذا العلم الذى تهالك عليه وتستبجح فى سبيله الظلم ، أن يكون ميسراً لك وأنت مقيم فى مصر بين أهلك لا تفارقهم ولا تتكلف لهم ظلماً ، ولن تكون أول من حصل العلم دون أن يرحل إليه ، والعلم يعبر إلينا البحر من أوروبا ، وهو يسعى إلينا فى دورنا ، ونحن نستطيع أن نلتمسه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الكتب . وإنى لأخشى ألا يكون حب العلم الخالص هو الذى يغريك بهذه الرحلة التى لن أخرج من أن أراها آثمة ، وإنما يغريك بها سأم الأديب والحرص على تغيير الحياة ، والطمح إلى منصب الأستاذ ،

وهذا كله يغرى ، ولكنه يجب أن يكون أهون على الرجل الكريم من أن يدفعه إلى الظلم والإثم والعدوان . قال : يا سيدى إنك تضيع وقتك ووقتي ، فلن تقنعنى بالعدول عن الرحيل ، ولا بإظهار الجامعة على جليلة الأمر . وليس إلى اقتناعى بالكذب على الجامعة سبيل . أتندرى لماذا أهون عليك ؟ فإنى أرى هذا الكذب مباحاً وما أكثر ما أبيع لنفسى أشياء تحرمونها أنتم على أنفسكم ، ويحرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الأخلاق . أنا لا أكره هذا الكذب لأننى أراه إثماً ، وإنما أكرهه لأنه سيدفعنى إلى آثام أمقتها حقاً ، وإلى ظلم أرى أن ظلم الطلاق أهون منه . إنى لأعرف من أمر أوربا شيئاً كثيراً . وقد قرأت غير قليل مما ترسل إلينا من القصص ، وسمعت غير قليل من أنباء الذين يرحلون إليها ويقيمون فيها . وكل هذا ينبغى بأتى لن أقاوم الحياة الأوربية وآثارها فى نفسى كما ينبغى للرجل الوفى لزوجته أن يقاومها . فأنا واثق يا سيدى بأتى سأتهم وسأنغمس فى الخطايا وأنا أريد أن أحتمل وحدى هذا الإثم وأنغمس وحدى فى شر هذه الخطايا . وأنا أبيع لنفسى أن أكذب على الجامعة ، ولكنى لا أبيع لنفسى أن أكذب على امرأتى كذباً متصلاً ، فأزعم لها أتى وفى أمين ، على حين أتى قد غرقت فى الخيانة إلى أذنى . قلت وقد اقشعر جالدى واضطرب قلبى وأخذنى غضب عميق لا أكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه : فهل تعلم أنك تقول منكراً من القول ، وأنتك تقدم على أمر بشع شنيع ، وأن حبي لك يحملى على أن أتمنى ما استطعت أن تصرف

عن رحلتك هذه صرفاً ، وأن تكره على الإقامة في مصر إكراهاً . أنت تعلم أنك ستأثم في أوروبا ثم تقدم مع ذلك على السفر إليها ، وتشتد في هذا السفر . فأنت إذاً تريد الإثم وتتعمد الخطيئة وتصير على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكذب تبلغ أذنيه حتى جن جنونه ، واندفع في ضحك عريض ، عال متصل ، أخرجه عن طوره وكاد ينتهي به إلى الشر في جسمه وفي عقله أيضاً . وكان هو يضحك ويضطرب اضطراباً عنيفاً من شدة الضحك وأنا واجم ذاهل مبهور أسأل نفسي أول الأمر عن هذا الخجل الذي مسه . ثم تثوب إلى نفسي قليلاً قليلاً وإذا أنا أحس العمامة التي على رأسي وأحس الحبة والقفطان اللذين أسبغا على جسمي إسباغاً ، وأذكر أنني شيخ وأني أزهرى ، وأني تحدثت إلى صاحبي حديث رجل الدين ، وأن صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني إلى مكاني الأول ، ويرى أن أمله في قد خاب وأن اختلافي إلى الجامعة واستماعي للأساتذة الأوربيين وتحدثي إليه واستماعي منه ، وما قرأنا من كتب أوربية ، وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتنكر له ولهم ، وما كنت أرى به من المروق وإيثار البدعة ، وما كنت أجد من اللذة حين أحس أن الناس يرون في المروق وحب البدع جديداً ، كل هذا لم يكن إلا غشاء رقيقاً وطلاء يسيراً لا يكاد يثبت للتجربة الأولى ، فإذا جد الجدد ، وكان أول درس من دروس الحياة العاملة التي ليست كلاماً ولا غروراً ، فأنا الشيخ الأزهرى القح الذي حفظ ما حفظ من كتب

الدين وورث ما ورث من آثار القرون ، واحتمل في قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصغيرتين ، ثقل السنين التي توارثها الأجيال أثناء ثلاثة عشر قرناً .

أقول الحق أم أخفيه ؟ وما لي لا أصطنع الشجاعة ولا أحمل نفسي على بعض ما تكره ، وإن الحياة لتحملها على ما تكره في أكثر الأحيان . لقد استحييت من صاحبي ، واستحييت حتى انتهيت إلى الخزي ، وأحسست كأن رأسي ذاب في عمامتي ، وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شيء . وأخذت أتضام في جبتي وقفطاني . حتى خيل لي أنهما يستقران على هذا الكرسي لا يملؤهما شيء . وأخذت قطرات من العرق تسيل على جبهتي فتبلها . وكادت الرعدة أن تجري في جسمي المتضائل المضطرب . كل هذا لأن صاحبي ظهر على جليلة أمري . وعرف أنني ما زلت أزهرى النفس والقلب والعقل . أرى الانغماس في الحياة الأوروبية إثمًا وأشفق على صاحبي منه ، وأرى الإصرار على الخطيئة وتعمد الإقدام عليها كفرًا ، وأخاف على صاحبي عواقبه . وإذا فأى فرق بيني وبين هذا الشيخ العتيق الذي كان يعرض بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيتنفي في بعض دروسه بهذه الجملة التي شاعت والتي كنا نتندر بها ، ونضحك منها . وكنت أنا أشد الناس تندرًا بها وضحكًا منها ، « ومن ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق » .

كذلك قال الشيخ ، وبذلك كنا نتندر في الأزهر ، ومن ذلك كنا

نضحك في أنديتنا الحرة التي كان الأزهريون يرونها أندية ابتداء وضلال .
فقد أصبحت أنا كهذا الشيخ أرى أن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر
أو على الأقل زنديق . ومع ذلك فإن أساتذتي من الفرنجة في الجامعة
يرون أني حر الرأي ويشفقون عليّ من حرية الرأي هذه ، وكنت
أنا أرى أني حر الرأي وأغبط بما يصيبني في سبيل هذه الحرية .
فقد كنت إذا أكذب على نفسي ، وكنت إذا أخدع أساتذتي ،
ولم أكن إلا شيخاً أزهرياً قحاً يرى أن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر
أو على الأقل زنديق .

كذلك كنت أفكر مستخزياً متضائلاً من الخزي بينما كان صاحبي
يغرق في الضحك ، حتى إذا أعياه اضطراب جسمه هدأ بعض
الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث أن يعود إليه الضحك العنيف
فيهزه هزاً عنيفاً وهو يردد كلمة المعصية هذه ويقول ما زلت تؤمن
بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، وما زلت تفكر في الكفر
والإيمان .

ثم يمضي في الضحك وأمضي أنا في الخجل والاستخزاء . ومع
ذلك فلو أني كنت أتحدث إلى رجل هادئ عادي غير غريب
الأطوار ، لما أنكرت من حديثي شيئاً ولما رأيت على نفسي منه بأساً ،
فلم أكن أرى الذهاب إلى فرنسا كفراً ولا زندقة وإنما كانت طبيعتي كلها
تنور لهذه الجرأة الوقحة ، التي كان يقدم عليها صاحبي في غير تكلف ،
وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغمسه فيها وبهيشه للانغماس فيها .

ولقد منضت أعوام وأعوام وذهبت إلى أوروبا مرات ومرات وأقمت فيها . فأطلت الإقامة ، وما زلت اليوم كما كنت في تلك الليلة تتور طبيعتي كلها إذا سمعت من يتحدث في هذه المرأة الوقحة عن الخطايا والآثام والتهيو للانغماس فيها . ولا بد من أن أمضي في قول الحق إلى أقصاه ، فقد وادعت صاحبي وصانعته واجتهدت في أن أقنعه بأنني لست شيخاً أزهرياً قحاً ، لم أحبب إليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيو للانغماس في الخطايا والآثام . ولكني فقدت القدرة على مقاومته . وعجزت عن محاولة إقناعه بما كنت أرى ، لا لأني ملت إلى رأيه ، بل لأني كرهت أن يراني شيخاً أزهرياً قحاً يؤمن بأن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق .

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشباب فإذا هم يتكلفون ما لا يحسنون ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، ويتكلفون هذا النفاق الغريب يخفون به ما في نفوسهم من أصول الخير ويظهرون به ما يرغبون فيه من مظاهر التجديد .

ثم يرتفع الضحى وإذا صاحبي يردني إلى بيتي ويفارقني ليذهب إلى الجامعة ويقول في لهجة ساخرة لأذعة : سألتك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فإذا لقيني في آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد احتجزت له مكانه على إحدى السفن ، وأنه مرتحل بعد أسبوع وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم إلى الريف وأن طلاقها سيبلغها إذا كان الغد .

« يونيو في سنة . . . »

بينك وبينى أيها الصديق العزيز فتور أحسسته أمس حين التقينا في قهوتكم هذه التي تزدحم بالشيخ، ويشتد فيها لغظهم بالفقه والنحو والأدب، وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التي تصدر عن الناس وعن الترام وعن هذه العربات التي تخرج مع النساء من درب الجاميز إلى شارع محمد علي، لتنبث في أحياء القاهرة موزعة عليه ما يحتاج أهلها من اللحم. وقد كان هذا الضجيج المختلط خليقاً أن يحول بينى وبين الشعور بهذا الفتور، حتى يطول الحديث بيننا، ولكنى لم أكّد أصافحك حتى أحسست الفتور في يدك، وتأكدت أنه صورة للفتور في نفسك، فلما تحدثنا فصل لى صوتك الهادئ ما أجملت يدك، واستيقنت أن بينك وبينى شيئاً.

ولولا أصحابك من الشيخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من بعد، وأكره أن أجلس إليهم، وأن يتصل بينى وبينهم الحديث، لولا أصحابك الشيخ هؤلاء، وما كانوا يشغلوننا به من أحاديثهم عن الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم، وما كانوا يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يمرون بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الأطعمة الرخيصة، لولا أصحابك الشيخ هؤلاء لما اتصل

الحديث بينك وبينى أمس إلا فى هذا الفتور الذى تبينته فى يدك وفى صوتك ، وفى وجهك . ولما انصرف عنك إلا وقد رددت الأمر إلى ما كان عليه ، من هذا الصفاء القوى الذى لا تكلف فيه ، ولا احتياط . ولكنى جعلت أنتهز الفرص لأخلو بك ولتفرغ لى فلا تسنح ، ولم يكن من اليسير أن أطلب إليك النهوض معى لبعض الشئون كما تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعذر ، وستعمل بأنك متعب مكدود من ليلتك البيضاء ، التى قضيتها معى أمس .

على أنى لم ألبث أن تبين أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أقدر حين رأيته تتعجل العودة إلى بيتك ولا تحفل بإلحاحى عليك وإلحاح أصحابك فى أن تبقى معنا كما تعودت أن تبقى حتى يتقدم الليل ، وتقل الضوضاء فى الشارع ، ويطيب الحديث فى هذه القهوة الجميلة .

ولقد هممت أن أنهض لأرافقك إلى بيتك ، وكنت أظن أن فى مرافقتك هذه الدقائق ما يتيح لى أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور ، وكنت واثقاً بأنى إن بلغت فلن أدعه حتى أحويه محوياً ، وإن أرقنتك ليلة أخرى . ولكن الله لم يرد ذلك ، أو لم يرده أصحابك الشيوخ ، فقد نهض صاحبك هذان اللذان طالما نغصنا على مجلسى معك فراقك ، واضطرت أنا إلى التخلف ، والله يعلم إلى أين ذهبت ، فلست أشك فى أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت إلى بيتك ، وأكاد أعتقد أنك إنما تكلفت الانصراف وتعجلت العودة لتخلص منى ومن كان من أصحابك ، ولتفرغ لصديقك هذين فتقضى معهما شطراً من

الليل غير قليل ، فيما تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث .
ولولا أنى كرهت أن أثقل عليك وعليهما وأن أوصف بالإلحاح ،
لتبعتم لأعلم علمكم ، ولأسقط عليكم بعد أن يستقر بكم المجلس ،
ولأتخذ موضوعاً للصراع بينهما وبينى ، فلا أنصرف عنك ، حتى
أصرفهما ، وما أوسع حيلتى حين أريد أن أصرفهما عنك ، وأى شيء
أيسر من أن آخذ معك فى بعض الحديث الذى لا يجانه ، ولا يسيغانه ،
ولا يفهمانه ، فإذا أنت تجيب وإذا أنا أمضى فى الحديث ، وإذا
هما يظهران الضجر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتشاءبان ، ثم
يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان ، ولكنى لم أنشط لشيء
من هذا لأنى لم أجد منك ما يعيننى على النشاط إليه ، ولأنى لم أجد من نفسى
ما يدفعنى إلى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاتراً ، وكنت أنا مثقل النفس
بالهم ، مملوء القلب بالحزن ، والله يعلم ما احتجت إليك فى يوم أو ليل كما
احتجت إليك أمس ، وما افتقدتك فى يوم أو ليل كما افتقدتك مساء أمس .
لقد رأيتم تنهضون ، وأتبعتم بصرى وأنتم تسعون إلى درب الجماميز .
حتى إذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى فى الفضاء أمامه كأنما
كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم وأن يدعوكم إلى وأن يردكم
على ، ولكن بصرى لبث ثابتاً فى الفضاء ، لم يستطع أن يتبعكم ولا أن
يلفكم ولا أن يؤدى إلى أنفسكم ولا إلى نفسك أنت خاصة رسالة
نفسى ، فرددته إلى خائباً محزوناً ، ومكثت فى قهوتكم هذه أنظر
ولا أكاد أرى ، وألقى السمع ولا أكاد أسمع ، ويتحدث إلى من حولى

فأجيب حيناً ، وأذهل أحياناً عن الجواب . وقد تفرق الناس من حول
كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف . وخلت القهوة لى
ولجاعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ، فأنفقت فيها ما استطعت
أن أنفقه من الوقت ، وأستطيع أن أثبتك صادقاً بأنى دهشت حين
سمعت الخادم ينهى إلى أن قد آن أوان الإغلاق ، فنهضت كارهاً
مثاقلاً ، وأخذت الطريق التى أخذتموها ، فى درب الجماميز ، أسعى
أمامى وكأنى كنت أقدر أننى سألقاك عائداً إلى بيتك مع أحد صاحبيك ،
فأخذك منه قهراً أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين فى القاهرة ، أولاجئين
إلى دارى أو إلى هذا السطح الجميل الهادئ الذى ينبسط أمام بيتكم
الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم إنما ذهبتُم عند أحدكم فى هذا البيت
الذى يسكنه غير بعيد من بيتى ، عند جامع ابن طولون ، فسرتم
ما شاء الله أن تسمروا وهزأتم بشيوخكم فى الأزهر ما شاء الله أن تهزعوا ،
وذكرتم من أنباء صاحبيكم (. . .) ما شاء الله أن تذكروا ، وتناشدتم
الشعر وهجا بعضكم بعضاً ، وأثنى بعضكم على بعض ، ثم آن لكم
أن تتفرقوا فبقى أحدكم فى بيته وخرجت أنت مع صاحبك تسعيان فى
هدوء الليل الساكن وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من
هؤلاء السكارى الذين يتخبطون فى هذه الأحياء الوطنية حين يعودون
إلى بيوتهم آخر الليل ، حتى إذا بلغنا بيتك آويت إليه ، ومضى
صاحبك وحيداً ، يسرع فى هدوء الليل كأنه السهم ، حتى يبلغ
داره فى أقصى الظاهر .

كنت أقدر هذا كله وأكاد أثق به ، وأكاد لا أشك في أني سألقاك مع صاحبك في بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام من بعد ، إلا خيل إلى أنها أقدامكما ، ولكنني قطعت درب الجواميز حتى انتهيت إلى السيدة دون أن ألقاكما ، ثم مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم ألقكما ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك ، فلم ألقكما ، ولم أر في البيت ما يدل على يقظة ، ولم أسمع منه ما ينبئ باتصال السمر والحديث .

فضيت في طريق يائساً من لقائك محزوناً لهذا الفتور الذي لم أستطع أن أحوه حتى انتهيت إلى بيتي ، وليتني لم أنته إليه ، لقد كنت ذاهلاً حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت أن أفعل وانتظرت ، ثم دققت مرة أخرى ومرة ثالثة ، وكان الصوت يتردد في هذه الدار ثم يعود إلى فينبئني بشيء لا أكاد أفهمه ، حتى إذا كانت الطرقة الثالثة عاد الصوت إلى ينبئني بما فهمته وارتعت له ، عاد الصوت إلى يقول لي إنك لأحق ، فم تطرق الباب وليس من ورائه من يسمع لك ، ولا من يسرع إليك ؟ لقد تحمل من كان في البيت وأصبح البيت خالياً فارغاً هادئاً ينتظر مقدمك لتتلاه وتعمره وتذيع فيه الحركة ، لا تعد طرق الباب ، فلن يستجيب لك أحد ، ولكن أخرج المفتاح وأدره في القفل أمامك ، فإذا انفتح الباب لك ، فادخل وأغلقه من دونك أو لا تغلقه ، فمن يدري ! لعلك لا تستطيع مصاحبة لهذه الوحدة المروعة في هذا البيت الذي لم يتعود الفراغ . لن تهديك الخادم الصغيرة بمصباحها

الضئيل كما تعودت أن تفعل . فأنت تعلم أنها سافرت مع سيدتها ، فأخرج من جيبيك علبة الثقاب وأضئ لنفسك ظلمة الطريق واذهب إلى أي الوجهين شئت ، اذهب إلى غرفتك الحرام ، فلا بأس عليك من الالتجاء إليها ، لن يبلغك فيها صوت ، ولن تنتهي إليك فيها حركة . ولن تتحدث فيها إلى صديقك ، ولن تلقى فيها إلا كتبك التي لا تحصى . ومن يدري ! لعل نفوس المؤلفين لهذه الكتب قد أقبلت جماعات من أعماق الزمان ومن أقطار الأرض ، لتؤنس وحشتك في هذه الغرفة الخالية . واذهب إن شئت إلى غرفة نومك فلن ترى في السلم سراجاً مضئاً ولن ترى إذا انتهيت إلى أعلى السلم خادمك الصغيرة مستلقية تغالب النوم وتنتظر مقدمك . ولن ترى في غرفتك امرأتك في سريرها تتكلف النوم وهي مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك ، ولا أن تشق عليك ولا أن تلقى في روعك أنها تأرق حتى تعود إلى غرفتك . فالله يعلم أنها لا تأرق إلا انتظاراً لك ، وشوقاً إليك ، ولكنك خليك أن تسيء الظن وأن تقدر أنها إنما تأرق لتحصى عليك الساعات . تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترقفاً ولا محتاطاً فلن توقف أحداً ، ولن يحس مقدمك أحد ، ومن يدري ! لعل ظلاً من امرأتك قد أقام في هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى أن يفارق هذا البيت حتى تفارقه أنت لتعبر البحر .

نعم عاد إلى صوت الطريقة الثالثة بهذا الحديث الطويل ، في لحظات لا أدرى أكن طويلاً أم قصاراً ، ولكن الذي أعلمه هو أني لم أخرج

المفتاح ولم أدره في القفل أماى ، ولم يفتح لي الباب ، وإنما لبثت قائماً أمام البيت بعد أن تردد هذا الحديث في أعماق نفسي ، فلأها حزناً ووحشة ورعباً ، وأكاد أكتب وندماً ، ولكنى لا أريد أن أعترف بأنى أحسست الندم .

لبثت قائماً أمام البيت أسأل نفسي أقدم أم أحجم ؟ أأدخل الدار أم أنصرف عنها . ثم لا أخفى عليك لقد عجزت عن الإقدام وكرهت أن أفتح الباب ، ولم أحس شوقاً إلى لقاء الظلال ، ظلال العلماء والأدباء والفلاسفة ، قد أقبلوا يؤنسوني وحشتي في الغرفة الحرام . ولم أجده جليداً على أن ألقى ظلي امرأتى في غرفة نومي ، وإنما استحييت منه أشد الاستحياء ، لم أدخل الدار وإنما انصرفت راجعاً أدراجي ، ومضيت أهيماً في الطريق أماى ، أخرج من شارع لأدفع إلى شارع آخر ، لا أحفل بما قد يظنه هؤلاء الخفراء والشرطيون الذين لا أشك في أنهم كانوا ينكرون شخصي الهائم ، في مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل ، ولعل منهم من هم أن يسألني عن أمري ، ولكنه لم يجد على من مظاهر الريبة ما يغريه بهذا السؤال ، فخلت بي وببين الطريق .

وما زلت أهيماً وأهيماً في غير وجه حتى أحسست يقظة الناس من حولى ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء إلى الله ، فثابت إلى نفسي بعض الشيء مع ضوء النهار ، وتكلفت في مشي ومظهري ما يصرف عني كل ريبة أو شك ومضيت في هيأى ، ساعة وبعض

ساعة ، ثم أنظر فإذا أنا عند قهوتكم هذه التي التقينا فيها مساء أمس .
من أين جئت ، وكيف انتهيت إليها ، لا أدري ، ولكني قد بلغت
وبلغت متعباً مكدوداً ، وما كدت أرى هذه الكراسي ينسقها الخادم
في شيء من الكسل والفتور حتى أحسست كأن هذه الكراسي تدعوني
إلى الراحة . وحتى رأيتني أستجيب لدعائها : وأسرع إلى الجلوس ،
وأطلب إلى الخادم أن يحمل إلى الشاي . ومن قهوتكم هذه أكتب
إليك الآن أيها الصديق . وكنت أريد أن أتحدث إليك عن هذا
الفتور الذي أحسسته منك أمس لأخبره ولأتم معك الحديث الذي
كنا فيه والذي قطعته أنا بهذا الضحك المفاجئ السخيف الذي دفعت
إليه دفعاً والذي أفسد الأمر بينك وبينى . ولكني لم أحادثك إلى الآن
إلا عن نفسي وعن ليلتي البيضاء الثانية التي قضيتها في غير راحة ولا أمن
ولا هدوء . على حين طوت أنت مع صاحبك ثم استمتعت بالراحة
والنوم ، وها أنت ذا الآن تستقبل النهار نشيطاً مستريحاً مبتسماً للحياة ،
تريد أن تمضي فيما تعودت أن تمضي فيه من القراءة أو الدرس ،
أو تريد أن تخرج للقاء صاحبك أحدهما أو كليهما ، أو تريد أن
تتطرهما فلعلهما أن يزوراك ليخرجاك أو ليبقيا معك . ألسنت ترى أنك
أثر مسرف في الأثرة وأنتك تترك صديقك يحتمل وحده أثقال الشقاء ؟
ألسنت ترى أن من حق صديقك عليك أن تسرع إليه فتسمع منه ،
وتقول له : وتسليه وتواسيه ، فإنه سيشقى وحده دهرًا طويلاً حين
يعبر البحر إلى تلك البلاد التي ليس له فيها صديق ؟

سأرسل إليك هذا الكتاب مع خادِم القهوة وسأنتظر بعد إرساله ساعة فن يدرى لعل أن أراك مقبلاً مع غلامك الأسود الصغير
دخل على بهذا الكتاب غلامى الأسود الصغير هذا وأنا أتيتُ للخروج، وكنت كما قدر صاحبي على موعد من صديقي لنذهب إلى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكده يفرغ من قراءة هذا الكتاب على في لهجته الأسوانية التي كانت تضحكنى عادة لأنها تجعل القاف غيناً والغين قافاً والتي لم تضحكنى اليوم وإنما آذنتى وملأت صدري حرجاً . لم يكده يفرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا إلى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرني صديقاى ، بل إلى قهوة الزاوية حيث كان ينتظرني صاحبي هذا الشقى .

١٠

ألم أقل لك أول أمس إنى سأصبح بطلاً قبل أن ينتصف النهار من غد ؟ فإنى قد صرت بطلاً منذ أمس وما أظنك تمارى فى ذلك بعد أن قرأت الكتاب الذى أرسلته إليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة أمامه بعصاه ضرباً خفيفاً ، فلما أقبل الخادم طلب إليه لإبريقاً من الشاى ، ثم استأنف حديثه متعباً مكثوداً وفى صوته شىء غير قليل من التكسر والفتور . قال : نعم لقد صرت بطلاً منذ أمس ، بطلاً لقصة قد تكون كلها جذاً وقد تكون كلها هزلاً وقد تكون مزاجاً

١٠٠

من هذا
أو أراد
من الأش
لها جيلاً
المينة ولا
القلب
ولا يلقى
هذا الش
المرآة ،
الممكنة
هذا وأز
حين ان
وكادت
فالأ
نفسك
هذا الخ
لها نمد
بجمل
الشاى
ثم

من هذا وذاك ولكنها قصة لا بد لها من بطل على كل حال ، وقد أردت
أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس
من الأشياء الهينة أن يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها ويؤثرها ويعرف
لها جيلاً لا يستطيع أن يقدره ولا أن يكافئها عليه . ليس هذا من الأشياء
الهينة ولا سيما حين تكون هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة
القلب نقية الضمير لا يأخذها زوجها بخطيئة ولا يتعلق عليها بسينة
ولا يلتق منها إلا ما يسره ويبره ويرضيه ، ومع ذلك فقد أقدمت على
هذا الشيء الخطير لإثارة العلم وإن شئت فقل لإثارة للرق وارتفاع
المنزلة ، وإن شئت فقل اجتناباً للكذب على الجامعة وفراراً من الحياة
الممكنة ، بل الراجحة ، بل المحققة . وأنا أعلم أنك قد أنكرت على
هذا وأناك كنت تجادلني فيه ، ولكن تلك الضحكة التي لقينك بها
حين انتهيت إلى بعض الحديث قد قطعت علىّ وعليك هذا الجدل
وكادت تفسد ما بينك وبينى من الأمر .

فالآن وقد قرأت كتابي وعرفت من أمرى ما عرفت وزال من
نفسك هذا النفور الذى كنت أحسه أمس فقد نستطيع أن نعود إلى
هذا الحديث لتعلم أنى لم أكن مخطئاً فيما كنت أعتزم وأنى لست مخطئاً
فيما تمت عليه من فراق امرأتى قبل أن أرحل إلى أوروبا . وأقبل الخادم
يحمل الشاى فلأ منه قلدحاً لى وقدحاً له وهو يقول هذا خامس أقداح
الشاى التي شربتها منذ بلغت هذا المكان فى أول النهار .
ثم عاد إلى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى دارة ،

فقال : لقد كنت تلومنى على أنى أقدر الإثم وأفكر فيه وأعلم منذ الآن أنى سأقترفه وأتبعها بفراق امرأتى لاقترافه ، وكنت ترى الإصرار على هذا كله خطيئة بل كفراً وخروجاً من الدين ، وكان حديث الكفر يدهشنى لأنى لم أكن أنتظره منك بعد أن عرفتك حر الرأى غالباً فى التجديد . فلا تغضب إن أظهرت هذا الدهش ، وعد بنا إلى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ أن يعرف الإنسان مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وأن يحتاط لما يعرف من ذلك فلا يقترب من الآثام ولا يجترح من السيئات إلا ما لا يجد منه بدءاً ولا عنه منصرفاً . أم أن يخدع الإنسان نفسه ويغره بها الغرور فيضيف إليها الخير وليست بخيرة ويثبت لها الفضيلة وليست بفاضلة ويحملها ما تطيق وما لا تطيق ، ويقترب من الآثام ما يستطيع أن يجتنبه ويتق التورط فيه . وما رأيك فى أنى أعرف من نفسى مواطن الضعف وأقدر أن الحياة الجديدة فى ذلك الذى أنا راحل إليه ستمحو منها هذا المقدار اليسير الذى بقى لها من رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ما تواضع الناس على أنه الخير ، وستغمرنى أمواجها الزاخرة المصطخبة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وإنما أعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير ما يأتون . أفإن صارحت نفسى بالحق وأخذتها بأن تحتمل وحدها أوزار أعمالها كنت خاطئاً ممعناً فى الخطيئة وكافراً مسرفاً فى الكفر . فإذا ضللت نفسى تضليلاً وغررتها تغريراً وزينت لها وللناس أنى سأكون فى فرنسا خيراً مما أنا فى

مصر تقياً نقياً وبراً طاهر القلب ، وأنا أعلم أن ذلك لن يكون مهما
أحاوله وأعلم قبل ذلك أني لن أحاوله لأنني لن أستطيع التفكير في
محاولته ، أفإن عمدت إلى هذا التضييل والتغريب برئت من الخطيئة
ونجوت من لثم الكفر والمروق . ألسنت ترى في هذا النحو من التفكير
والفهم والحكم عوجاً والتواء ؟ قلت : لا أدري ولكني أؤثر الرجل أن
يقع في الخطيئة إن لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك
ولا تهيو ولا تفكير فيه ، وأرى في هذا الاستعداد للإثم بدءاً في
اقترافه وفي هذا التهيو للإساءة شروعاً في الإساءة وفي هذا التفكير في
الشر قبل أن يقع مع أن من الممكن ألا يقع استعداداً رديئاً للشر
والحاحاً آثماً في دعائه ، وقد كان يحسن ألا تدعوه . والأمر لا يقف
في رأيي عند الدين ولا عند الكفر والإيمان ولا عند رعاية العادات
والاحتفاظ بالتقاليد والأخلاق ، وإنما هو يتجاوز هذا كله إلى شيء
لا أدري كيف أصفه ، ولكن صورته تقع من نفسي موقعاً سيئاً .
فقد يخيل إلي أن الإنسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى
حتى أمام نفسه إن وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد يخيل إلي أن حياء الرجل
المثقف من نفسه هو خير أنواع الحياء وأرقى منازلها . وقد يخيل إلي أن
في مواجهتك لهذا الشر الذي لم تعرفه ولم تدفع إليه بعد وفي تأهلك له ،
شيئاً من الخروج عن هذا الحياء الذي لا ينبغي للرجل المتحضر المثقف
أن يبرأ منه .

قال : فأنت تريد أن تقول إنني وقع أمام نفسي ، فليس غريباً

أن أكون وقحاً أمام الناس ! قلت في شيء من التحفظ : هو ذاك ، بل إن في الأمر ما هو أغرب من هذا ، فإنك لا تظهر وقحاً أمام الناس ، وما أعرف أن أحداً أساء الظن بك أو شك في سيرتك أو رماك بالخلاعة أو اتهمك بالمجون . فأنت إذاً تظهر للناس غير ماتصمر ، وأنت إذاً تكاشف الناس بما لا تكاشف به نفسك ، وأنت إذاً خليع ماجن ، ولكنك تظهر للناس أنك صاحب جد واحتشام . قال وقد عاد إليه نشاطه واستأنف ضحكته العريض : فإني يا سيدي خليع ماجن ، ما أرى في ذلك عيباً وما أشك في أني عظيم الحظ منه . وإذا أخفيت ذلك على الناس فما أخفيه إلا اتقاء لشر الناس وإيثاراً لمنفعتي ليس غير . فقل إني وقع في السر ، وقل إني رجل لا حظ له من حياء ، فأنت إن قلت ذلك لم تعد الحق ولم تؤذني ؛ لأنك لست كغيرك من الناس ، ولأنك لا تملك أو لا تستطيع أن تؤذيني وأن تقوت على حظي من الخلاعة والمجون . وأنا على هذا كله أرى أني أقرب إلى الخير من قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجوناً ، ولا يكشفون للناس ولا لأنفسهم عما يظنون من سرائر بغيضة ونيات آثمة خبيثة . فأنا أريد أن أحتمل وحدي وزر خلاعتي وثقل مجوني ، وأنا أعلم أن حساب ذلك بيني وبين ضميري أو بيني وبين الله . ولكني لا أحب أن أمسك امرأتني فأحملها ثقل ما أقترف من الآثام والسيئات ، وأخونها وأنا أزعم لها أني وفي . إني لا أعلم أني ما خنتها منذ اتخذتها زوجاً على كثرة ما نازعتني نفسي إلى الخيانة ، ومن يدري ! لعل حظي من الحياء أمام نفسي

أكثر مما تظن . ومن يدري ! لعل حظي من هذه الأخلاق الأخرى التي تعصم الرجل من الخلاعة والمجون أكثر مما تظن أيضاً . وإني لأقيس نفسي إلى صاحبك هذا الشيخ ما كاد يظفر بالإجازة التي تجعله من علماء الدين وتضمن له أجراً يوسع عليه في الحياة ويمكنه من الترفيه على نفسه ، حتى أقدم على ما تعلم وما لا تعلم من الآثام والخطايا . والحصل أني لا تلائم علماً ولا ديناً ولا خلقاً ، فهو يغرق في المجون والإثم إلى أذنيه حين تمكنه الفرصة ، فإن لم تواته دعاها واتخذ إليها الوسائل والأسباب . وهو في الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها أنه أطهر الناس سيرة وأعفهم لساناً وقلباً ويداً . وهو في الوقت نفسه يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الإيمان والنسك ، ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون في المسجد قد سبق إلى الصف الأول ، ولا تراه في مجلس من المجالس العامة ولا في ناد من الأندية إلا وفي يده سبحة يعبث بها ، أو كتاب من كتب العلم أو الدين ينظر فيه أو ينصرف من النظر فيه وكأنه قد أكره على هذا الانصراف إكراهاً . أنا يا سيدي خير من هذا الشيخ في نفسي ، وخير منه في نفسك ، وخير منه عند الله .

قلت ضاحكاً : أما أنك خير من هذا الشيخ في نفسك وفي نفسي فهذا شيء ليس فيه شك . وأما أنك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا . وما أرى إلا أن كليهما شر من صاحبه ، وما أرى أن الوقاحة في الإثم خير من النفاق ، ولا أن النفاق في الإثم خير من الوقاحة ،

إنما أمركما كحمارى العبادى قيل له أيهما شر؟ فقال : هذا ثم هذا .
قال وقد أرسل من فمه ضحكة ملأت القهورة ، وما أشك في أنها
لفتت إلينا من كان فيها من الناس : ليس هذان الحماران سواء يا سيدى ،
بل إن بينهما شيئاً من الاختلاف . فأما أحدهما فقد ينفق النهار
لا يذوق طعاماً وقد يارق الليل لا يذوق نوماً ، حتى إذا استقبل الصبح
وأدركه الضعف وأضناه الأرق والتفكير استعان على الضعف والضعف
بأكواب من الشاى يحسوها هادئاً رقيقاً ، ثم يخوض معك في أحاديث
العلم والدين ، ويمجادك في الأخلاق وفلسفة الأخلاق ، فهو حمار
مثقف متحضر ، إن جاز للحمير أن تأخذ بحظ من ثقافة أو حضارة .
وأما الآخر فهو الحمار الذى ذكره القرآن ، يحمل الأسفار ويشقى
بثقلها ولا يعي ولا يفقه مما فيها شيئاً . لو قد رأيته منذ حين في هذا
المكان الذى لم يبرحه بعد لوليت منه فراراً وللت منه رعباً ، إذا لرأيت
حيواناً قد أقبل على طعامه من القول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه
من اليابس والأخضر ، وهو يلتهم القول التهاماً ، ويقضم البصل قضمًا ،
وبين يديه هذا الغلام الذى لا يزال معه إلى الآن يأكل متحفظاً
مستخدياً من نفسه ومن مكانه بين يدى هذا الشيخ أمام الناس .
ثم يفرغان من الاتهام والقضم ، ومن الازدراء والخضم ، ويحمل إليهما
الشاى فإذا الغلام يتناوله في أناة ومهل ، وإذا شيخك الحمار أو حمارك
الشيخ لا يكاد يملأ القلح حتى يلقيه في جوفه إلقاء كما يصب الماء
من النوافذ على الأرض صبيّاً . وأقسم لقد رأيته منذ حين يقبل على هذه

القهوة ضعيفاً مكثوراً ويسعى إلى مجلسه منها بطيئاً متهاكاً ، ثم يلقى نفسه على كرسیه إلقاءً ، كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغي له من اعتدال القامة ، فخر على كرسیه كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيته يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فما شككت في أنه أنفق ليله أو أكثر ليله في غير النوم وفي غير ما يأرق له النساك والصالحون ، وفي غير ما يسهر له العلماء والمفكرون ، وفي غير ما أنفقت فيه ليل من ألم وندم ومن هيام واضطراب في الأرض . ثم لم يكد يستقر ويستقر غلامه هذا بين يديه ، حتى أقبل الخادم فسمع منهما كلاماً ثم انصرف ، وأقبل صاحب القول يحمل آنيته وطعامه وحزماً من البصل ، وانكب الشيخ على ما قدم إليه لا يعقل ولا يعي ولا يستأني ولا يكاد يمزغ أو يذوق ، إنما هي يد تنقل الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه في مكانه الآخر من جوفه . حتى إذا امتلأ واكتظ وحاول أن يطفى نار الهضم بهذه الأقداح من الشاي التي ألقاها في حلقه إلقاءً ، تهالك على كرسیه كما أراه الآن لا نائماً ولا يقظان ، وإنما هو شيء بين ذلك . وغلامه جالس بين يديه يرمقه في نخزي وازدراء ، ثم ينظر في صحيفته ويشغل نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم إلى أين يذهبان إذا قاما . والله يعلم فيم ينمق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ نهارة . وأكبر الظن أنه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك . فيؤدي الصلوات في أوقاتها ، ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع في هذا المسجد أو ذاك من المساجد التي

تلقاه في بعض الطريق . كلا ! ليس الحماران سواء يا سيدي . أحدهما
حمار متحضر مثقف ، والآخر حمار وحشي غليظ .
قلت وقد أغرقت في الضحك : هما حماران على كل حال ،
ولكن صورة الحمار الوحشي تعجبني من الناحية الفنية .
قال : كل يصف حمارة الوحشي كما يستطيع ؛ فما أظنك تريدني
على أن أصفه كما كان الشعراء الأقدمون يصفون حرهم الوحشية .
وإنك لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمراً تمشي على أربع ، أما نحن
فنرى حمراً تمشي على رجلين . ثم صب لنفسه قدحاً من الشاي وأخذ
يدير المعلقة فيه مستأنياً بطيئاً ، كأنما يأتي عملاً آلياً على حين قد
شردت نفسه وفارقتة إلى مكان بعيد . وسكت عنه حيناً فلم يتحدث ،
ومضيت في الصمت ففضي فيه ومضت يده تدير المعلقة في القدح .
حتى إذا أنكرت منه ذلك قلت له : ويحك ! ماذا تصنع وفيما تفكر ؟
قال : يا سيدي إن الحمر لا تفكر ، ثم ألقى المعلقة من يده وأخذ
يحسو الشاي مصمماً على الصمت وماضياً فيه . قلت : فإني أغضبتك
حين شبهتك مع صاحبك بحماري العبادي ، فلا بأس عليك ، فواحدة
بواحدة . لقد أغضبتني أول من أمس ثم اعتذرت إلي ، وقد أغضبتك
الآن وأنا أعتذر إليك ، فعد إلى مثل ما كنا فيه من الحديث .
قال : ما أغضبتني وما أكره أن أكون حماراً ما دمت أعرف أنني
حمار مثقف متحضر . فارتفع القامة في السماء وانحناء الجسم إلى
الأرض والمشي على رجلين أو على أربع ، كل ذلك لا يعنيني ما دمت

أجد اللذة والألم في الحس والشعور والتفكير . أتدري ماذا كنت أصنع حين أقبلت على آنفاً ؟ . قلت لا . قال : فإني كنت أتحدث إلى امرأتى فأطلت الحديث ، ثم أحسست أنها لن تفهم من حديثي شيئاً ، فطويت كتابي وتحدثت إلى أبي في الأسطر القصيرة التي أقرأها عليك . ثم أخذ يقرأ :
« والدى العزيز .

إذا انتهى إليك كتابي هذا ، فستجد معه صك الطلاق ؛ فإني قد طلقت حميدة أمس على كره مني ؛ لأنني لا أدري كم يطول مقامى في أوربا ، وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تكن ذنباً ولم تقترف إثماً . وما لها تتعذب لأنني أريد أن أتعلم ، وتشقى لأنني أكلف بالاعتراب ! وإني لمحزون لهذا الطلاق الذي أقدمت عليه ، ولكن لا بد مما ليس منه بد : فاقراً عليها تحيى وعذرى واستوص بها وبأهلها خيراً . والسلام عليك ورحمة الله » .

ثم قال : وكذلك يا سيدى أدبت في هذا اللفظ القصير السخيف معان لا تتسع لها الكتب الطوال ، لأن الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس ، وأن تظل بينهم الحجب الصفاقي ، فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم يعيشون معاً وأنهم يتعاونون على الحياة ؛ وإن لكل واحد منهم لبرجاً من العاج يعيش فيه لا يظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على إنسان .

قلت : وكتابك إلى امرأتك ماذا صنعت به ؟ قال : طويته . وماذا

تريد أن أصنع به إلا أن أمزقه وأرميه في النار . قلت : فألقه إلى إن لم تجد بذلك بأساً . قال : وأى بأس أن تلتهمه أنت أو أن تلتهمه النار ! سواء على ، ولكن لا تطلب إلى أن أقرأ عليك هذا الكتاب ؛ فخذاه وليقرأه عليك غلامك الأسود متى شئت . أما أنا فلأني متعب مكدود ، وأظن أن قد آن لي أن أنصرف عنك ، فليس بد أن يخلو هذا البيت مما فيه من الأثاث . قلت : ستصرف عني ، وستخلو بيتك من أثاثه ولكن بعد أن تستريح ، فأنفق معي بقية اليوم وافرغ لأمرك إذا كان الغد . وقم فلنصرف إلى بيتي ؛ فلعلك تظفر فيه ببعض الراحة . ثم نهضنا متساقلين ، وخرجنا متباطئين . فلما جاوزنا الباب قال في ضحك خفيف : ما زال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار في ركنه يقظان كالنائم ، ونائماً كاليقظان !

يوني في . . .

لم يؤوني البيت منذ فارقتك ظهر أمس يا حميدتي العزيزة . ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتي كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة إلى هذا الوقت الذي أكتب إليك فيه وقد كاد يرتفع الضحى . ذلك أن في نفسي صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقي ، وهي صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجهة لا تنطقين . ثم لم أكد أقبل

عليك وأدعو باسمك حتى رفعت إلى عيناً مثقلة لا تريد أن ترتفع ، ثم
انهمرت دموعك انهمازاً صامتاً لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من
زفير وشهيق . وقد نظرت إليك وأنت في هذه الحال ساعة لم أقل لك
شيئاً ولم أقل لنفسى شيئاً ، وإنما وجدت كما كنت واجهة ، ثم انهمرت
دموعي كما انهمرت دموعك ، ثم قام كل منا في مكانه لحظات لا أدرى
أكانت طويلاً أم قصاراً ، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع
غزير . ثم سعيت إليك في رفق فضمنتك إلى وطوقتك بذراعي ، فلم
تقول شيئاً وإنما أسندت رأسك إلى كتفي وظل دمعك ينهمر سخياً غزيراً
ثم أخذت رأسك بين يدي ، ولثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعك
شرباً ، ثم قبلت جبهتك وخديك ، ثم ضمنتك إلى مرة أخرى فقبلتني
ثم افترقنا ومضى كل منا في الاستعداد للرحيل .

لم تفارقتي هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقتي ؛ فما
زلت منذ أمس أنظر إليك واجهة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعي
تدرفين دموعك على كتفي ، ثم أراي أقبلك وأراك تقبليني ، ثم أراك
تسعين في الغرفة ذاهبة جاثية تهينين متاعك في طمت متصل لا يقطعه
شيء حتى ولا زقرة من الزفرات . ولقد اضطربت في المدينة بقية النهار
وشطراً من الليل ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم ،
ونخيل إلى أنهم يفهمونني ونخيل إلى أني أفهمهم ، ونخيل إليهم في أكبر
الظن أني كنت كما تعودوا أن يروني دائماً ثرثاراً ساخراً متصل العبث والمزاح
ولكن الله يشهد ما خلصت لواحد منهم ولا خلص لي واحد منهم ، وإنما

كنت أمتنحهم بعض نفسى أو كنت أمتنحهم أيسر ما يستطيع الرجل أن يمنح من نفسه . وكنت أرى أن هذا يكفى لأفهم عنهم وليفهموا عنى ، وكانت خلاصة نفسى مملوءة بك منصرفة إلى " تملؤها هذه الصورة وتمتزع بها امتزاجاً حتى لكأنها هى . ولست أدرى : أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل ، وأنى لا أحس شيئاً ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليقه ! ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبينى إلا أيسر ما يكون من الصلات بين الأزواج ؛ فأنت لا تعرفين من أمرى إلا أقله وأيسره ، وأنا لا يفوتنى من أمرك إلا أقله وأيسره . لست أدرى أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل ؟ ! ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور على " ولزومها لنفسى وامتلاكها لقلبى وامتلاء خواطرى بها وأحسست ما كان بينها وبين نفسى من الامتزاج ، أخذت أفكر فِيمَ يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير . ولكن فيما أتحدث إليك يا حيدة البائسة ؟ ! إنى لأقص عليك سخفاً لا يغنى ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوزه إلى قلبك الحزين . وما أنت وما هذا الكلام ؟ وما أنا والتحدث به إليك ؟ وإنما أريد أن أرسل إليك كتاباً كله حب وكله بر وكله حنان . فأين هذا مما أخذت أهذى به وأخوض فيه ؟ ! أفكُتِب علينا ألا تلتقى نفسانا فيطول بينهما اللقاء ؟ أفكُتِب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلوى الذى لا ينقضى معه من أحدنا شيء على صاحبه لا من حسه حين يحس ، ولا من

شعوره حين يشعر ، ولا من تفكيره حين يفكر ؟ ! أفكُتِب علينا أن
تلتقي أجسامنا وألا تلتقي نفوسنا إلا لحظات قصاراً في نظرات قصار سراع
كأنما نختلسها اختلاساً ؟ ولكن أنفهمين عنى ما أقول ؟ أنحسين ما
أحس ؟ أنجدين ما أجد ؟ إني لم أتعود أن أتحدث إليكِ مثل هذا الحديث
وإنما تعودت ألا أتحدث إليكِ إلا قليلاً ، ولا أتحدث إليكِ إلا في
أيسر الأشياء وأدناها إلى السخف وأشدّها اتصالاً بشئون حياتنا المادية
بما يمس شئون البيت . ما أذكر أنى تحدثت إليكِ في الحب ، وما
أعلم أنك تحدثت إلى فيه . كنت أرى أنك لن تفهمي عنى إذا تحدثت
إليك بما أجد . وكان الحياء يمنعك من أن تتحدثي إلىّ ببعض ما تجدين .
وكنا نكتفى بالنظرات الحلوة القصيرة يملؤها الحنان . وكنا نكتفى بحلاوة
الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث في أى شأن من
الشئون ليشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والإخلاص
وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة في شئونها المادية ،
وكانت رمزاً أو شيئاً أشد غموضاً من الرمز فيما يمس شئون القلب والنفس
والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئاً من حياة القلب والنفس
والضمير ؛ فلم نفكر قط في تحليل ما بيننا من صلة أو في تأويله
وتعليقه . ومتى كنا نستطيع أن نفكر في ذلك وقد كنت مشغولاً عنك
بالعمل والكتاب ، وكنت مشغولة عنى بالبيت ، وكنا لا نلتقي إلا لتحدث
فيما يتحدث فيه الأزواج من الأمور غير ذات الخطر التي لا تمس قلباً ولا
نفساً ولا ضميراً . ماذا أقول ! وإلى من أكتب ؟ وإلى من أسوق هذا

الحديث ؟ أترين أنك تفهمين عنى هذا الكلام ؟ ما أظن ! فكيف تفهمينه وأنت تسمعينه لأول مرة ؛ ومع ذلك فلأنى شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسى بهذا الأسلوب العسير الدقيق ، وعلى هذا النحو الذى لا ينقصه العوج ولا الالتواء .

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر هذا المعنى الذى أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب ؛ فقد كنت أريد أن أتيك بأنى لم أستطع أن أستقر فى بيتنا بعد فراقك ؛ لأنى وجدت فيه وحشة نفتنى عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلاً ، فهمت فى المدينة وتلمست السلوة عند الأصدقاء بقية النهار وطول الليل . ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك فى هذه الغرفة طول هذا الوقت برغم الاضطراب فى الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء .

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر هذا الكتاب ؛ فهو يسير سهل كما ترين ، ولكنى مع ذلك لم أكد آخذ فيه حتى تعقد والتوى بى أو التوى على ، ودفعنى إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بى عن الغاية ولم أخلص منها ، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء . وكذلك أنا فى حياتى الشاعرة مضطرب ملتو كثير الاستطراد ، لا أفكر فى شيء إلا أثار لى أشياء ، ولا آخذ فى مذهب إلا التوى بى إلى مذاهب تشق شقاً من نواحيه ، فأنا أيا من مرة وأيا من أخرى ، وربما نسيت الطريق التى أخذت فيها أول الأمر ، ومضيت

في الاستطراد إلى غير أمد :

وكذلك أنا في حياتي العملية لا آتي أمراً إلا أثار لي أموراً وفتح لي أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً . ولعل ألج واحداً منها فلا أخرج منه ، وإنما تفتح لي أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين أفكر ، وأنا مضطرب حين أعمل ، وأنا مضطرب حين أقول . والغريب أني أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف حياتي وحدة وأن أثبت لها طريقاً متشابهة تنتهي أو تريد أن تنتهي إلى غاية مقاربة . ماذا أقول ؟ ! هاأنذا قد بعدت عنك وعما أكتب إليك من أجله ، وفرغت لنفسي أو شغلت بها ، فأنا أدرسها وأسرف في درسها وتحليلها ، وإن كنت أعلم أن لدى من الوقت ما يكفي للنظر في المرأة ولأرى هذه النفس التي أحب وأكره أن أراها . وليس لدى من الوقت ما يسمح لي بالتحدث إليك فيما أريد إلا القليل . ومن يدري ! لعل نفسي غير الشاعرة التي تجور بي عن القصد وتنحرف بي عن الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضي إلى الغاية التي من أجلها أكتب ، تشفق عليك وتشفق عليّ أيضاً . فإن الأمر الذي أريد أن أتحدث إليك فيه ثقیل خطير ، ما أحسب أنك تقوين عليّ استماع حديثي فيه ، وما أشك في أنني محتاج إلى شيء كثير جداً من الشجاعة والجلد لأمضي في هذا الحديث . وكذلك ترفق نفسي غير الشاعرة بنفسي الشاعرة ، وتحميها من بعض ما تكره ، وتريد أن تؤخر عنها العذاب . فما أشد سلطان الأثرة علينا ! وما أشد استثثار الضعف بنفسنا ! وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولا سيما حين نزعج أنفسنا حين نريد

أن يظهر الناس على أننا أقوياء ! ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل ، ولما دفعت إلى هذا القول الملتوى حين أحاول أن أثبتك نبياً مهما يكن ثقيلاً خطيراً فهو واضح لا غموض فيه ، ولكن أستحي منك وأستحي من نفسي وأشفق من الصراحة فأثقيها بالفلسفة والتواء الكلام . فلا تشجع إذاً ولتشجعي أنت أيضاً ، ولأقل إذاً ولتسمعي أنت ما أريد أن أقول ! إن القلم ليضطرب في يدي ، وإن يدي لتجمد فلا تكاد تتحرك ، وإني لمحتاج إلى أن أكف عن الكتابة حيناً لأسترد القوة والجرأة والنشاط . وهأنذا أستأنف الكتابة وأدافع عن نفسي دفاعاً شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد ، ولأكرهها على المضي فيما تلتبس الفراغ منه ، ولأحملها على أن تقسو عليك وعلى فتلقى إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقي بعد اليوم .

أف ! لقد ألقيت العبء وتخففت من الثقل ، واستطعت أن أنفـس في غير حرج ولا ضيق ، وأحسست كأنني أصبحت طليقاً حرّاً وقد كنت مقيداً مغلولاً ، لا شيء إلا لأنني ألقيت إليك هذا النبأ بعد أن كنت أخرج من إلقائه ، وأصبحت ملزماً أن أعله لك وأن أفسره وأن أرد عن نفسي ما سيثور في قلبك من الشبهات . وأنا أعلم أنك لن تصدقيني ولن تؤمنني لي ولن تقبلي شيئاً مما أقول . ولكنني أقسم مع ذلك ما طلقته عن قلبي ولا فارقته عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك . وإنني أقسم ما أحبيتك قط كما أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما آثرتك الآن ، وما عرفت سلطانك على ويدك عندي كما عرفتهما

الآن . بل أقسم إنى لأحس كأنما أشطّر قلبى شطرين ، فأحفظ شطره
فى صدرى وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد فى أعماق الريف حيث
لا يتاح لى أن ألقاه . بل أقسم ما طلقتك إلا حباً فىك وإيثاراً لك وضناً
بك على ما أكره . ولأكن صادقاً كل الصدق ؛ فإن الضعف والعجز
والخور ، كل هذه العيوب هى التى تدفعنى إلى أن أفارقك أشد ما
أكون لك حباً وأعظم ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون عليك حرصاً . لم
أستطع أن أؤثر على أوربا فأبقى معك ، ولم أستطع أن أطمئن إلى
أنى سأكون وفيّاً إذا عبرت البحر فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج .
ولست أريد هذا الوفاء الخلقى الذى يتصل بالنفس ، فأنا واثق بأنى قادر
عليه ، بل أنا واثق بأنه سيعذبنى وسيكلفنى آلاماً وأسقاماً . إنما أريد
الوفاء الكامل الشامل الذى يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله
والجسم أيضاً . أريد هذا الوفاء الذى لا يبيع شركة ولا توهماً للشركة ولا
تفكيراً فيها . وأنا آسف أشد الأسف محزون أشد الحزن ، لأنى أعلم
أنى سأعرض للفتنة إذا عبرت البحر ، وأن بعض اللحظ سيمس قلبى ،
وأن بعض الجمال سيستهوينى ، وأن بعض الشر سيدفعنى إلى شىء من
الغى . وما أحب أن أعرض حبك ، استغفر الله ، بل ما أحب أن
أعرض زواجنا للإثم والفساد . لا أستطيع أن أخفى عليك ما قد أقترف
من إثم ؛ لأنى لم أعودك ولم أعود نفسى الكذب . ولا أستطيع أن
أعترف لك بما قد أقترف من إثم ؛ لأنى إن فعلت آذيتك فى غير حق
وفى غير جدوى ، وعرضت ما بيننا للفساد . وأنا إن كذبت عليك أهنت

نفسى بالكذب . وإن اعترفت لك أهنت نفسى بالاعتراف . وإذا فبالى
لا أستقبل الحياة شجاعاً جريئاً مستمتعاً بلذاتها محتلاً لتبعاتها ! ! كم
كنت أريد أن أكون قوياً قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الإثم ، وأحتفظ
بقلبى طاهراً نقياً ، وبجسمى عفيفاً نظيفاً ، وأردهما إليك بعد العودة كما
ارتحلت بهما عنك أول الرحيل ، ولكنى عاجز عن ذلك ، أو عاجز عن
الاطمئنان إلى ذلك . والغريب أن من الممكن أن أعبر ببحر الغواية ولا
أغوى ، وأن أقضى أعوام الغواية نقياً طاهر القلب ، وأن أكون قد شققت
على نفسى بهذا الحرج وحملت ما كنت أستطيع ألا أحملها . هذا ممكن
ولعله أن يكون . ولكنى لا أكتفى بالممكن ولا أطمئن إلى الظن ، إنما أريد
الثقة ولا سبيل إليها ، وأطمع فى اليقين ولا أمل فيه . ولهذا أتكلف ما
أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم .

أترين أنك فهمت عنى ؟ ما أظن ! ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟
أترين أنك صدقتنى ؟ ما أظن ! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟
يا للحزن ويا للأسى ! لمن أكتب هذا الكتاب وإلى من أسوق هذا
الحديث ! إنك إن قرأته فلن تفهميه ، وإن فهمته فلن تقبله ، فكيف
وأنت لن تقرئيه ؟ ! إلى لغافل ذاهل ، إلى لمدلل مجنون . لقد أنسيت
أنك لا تقرئين ولا تكتبين فمن الذى سيقراً عليك هذا الكتاب ويفسره لك
من أهل الريف ؟ كلا لن أتمه ولن أرسله إليك ، ولن تعلمى من
أمرى إلا أنى رجل قاس غليظ مسرف فى كفر النعمة وجحود الجميل !
متتبع للأهواء والشهوات ، لا أخرج من شىء ولا أعرف بالحموح

نفسى غاية تنهى إليها أوحداً تقف عنده . سيستغل النبأ فى أسرتنا كما تسقط الصاعقة ، وسيلقونه إليك فى عنف أو فى لين ، وستجزعين وتظهرين التجلد ، وسيبكى قلبك وتتكلف عيناك الجمود . ثم ستمر الأيام ، وستحريصين على أن يصل إليك بعض أنبأى دون أن يعرف منك هذا الحرص . ثم سيأتى الخاطبون . كلا ! لا أريد أن أمضى إلى أبعد من هذا الحد فى التفكير ؛ فما أرى أنى أقوى على هذا المضى . لقد أبطأ على صاحبي وكلفنى انتظاراً طويلاً . ليته يقبل فيخرجنى من هذا العناء ... »

قرأ غلامى الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف غنى صاحبي فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له ، وسألت نفسى كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه !

يوليو فى

لم تفارقنى صورتها بعدُ أيها الصديق العزيز ، ومع ذلك فقد مضت أيام وأيام منذ انصرف بها القطار إلى قريتها فى الريف ، وحدثت بعد ذلك أحداث واختلقت شئون ، فلقيت من لقيت وتحدثت إلى من تحدثت إليه ، وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير ، ثم كانت الرحلة وهبط فى القطار إلى البحر ومضت إلى السفينة إلى ما وراء البحر ، وهأنذا

أكتب إليك في غرفة من غرفاتها . وشهد الله ما فارقني صورتها أثناء هذا كله في لحظة ولا في نوم .

ولقد سألت نفسي منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه للصديق . وسألت نفسي حين عرفت فأحببتك ، وحين فارقتك فجزعت لفراقك ، عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك ، وعرضت على نفسي أجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت أطمئن إلى بعضها حيناً ثم أدعه ، وكنت أنصرف عن بعضها الآخر حيناً ثم أعود إليه . ولكن الحياة نفسها قد أجابت عن هذا السؤال جواباً ما أحسب أني سأتحول عنه . فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق وخير ما أتمناه للعدو إن طابت نفسي وأحببت للعدو خيراً ، هو أن يجنبك الله أسباب الندم ، ويعصمك من الاضطراب إليه والإيغال فيه . فلست أعرف ألماً أشد ولا حزناً ألدع ولا عذاباً أمض ولا شقاء مفسداً للحياة كهذا الذي يثيره الندم في نفس الرجل الذي يقدر من الأمر ما يأتي وما يدع .

وإني لأقول لك هذا عن علم ، وأتحدث به إليك عن تجربة . وأي تجربة ! تجربة وددت لو أني تحملت كل ما ذقت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع إليها . فيا لها من منغص ما كبر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل أمل ، ويأخذ عليك كل طريق ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه ، فإذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهي بك إلى اليأس المهلك ، جلا عنك غمراته ، ونفس عن

قلبك وعقلك بعض الشيء ، وخيل إليك أنك قد رُددت إلى الفضاء
الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق . ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن
إلى بعض الأمن ، حتى يمسك هذا الشيطان الخفى مسّاً رقيقاً ولكنه عنيف ،
ليناً ولكنه يبلغ غاية القسوة . يخز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلاً
خفيفاً لا يكاد يحس ، ولكنه يذكرك بمكانه وينبهك إلى أن في هذا الهواء
الطلق راحة لجسمك إن تنسمته مطمئناً فارغ البال . ولكن يجب عليك
ألا تطمئن وألا يفرغ يالك ، فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً ، وإنه
دان منك كل الدنو وإن حسبتة نائياً عنك كل النأي . فإن كنت في
شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذى
تجده ، ما هو أو من أين يأتىك ؟ فستعلم أنه مس هذا الشيطان وألم
هذا الندم الذى إن رفته عليك فإنه لم ينسك ، ولا ينبغي له ولا ينبغي
لك أن تظن أنه سينسك .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة في الحديث مع من يحسن معه
الحديث ، وفي التفكير فيما يحسن فيه التفكير ، ولكنه كفى أن ينغص
عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيقة الضئيلة
التي يمسك بها في ناحية من نفسك ، فإذا أنت تقطع الحديث فجأة
وتنصرف عن التفكير فجأة ، كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه .

نعم ! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيم
الذى يغذى عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وأدب وفن ،
والذى تود لو تفنى فيه فناء وتمتزج به امتزاجاً وتنسى لقراءته الزمان

والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان، ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا ، وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها ، فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب ، وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع إلى السماء ، وإذا أنت واجم قد أنسيت ما كنت فيه ، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معاً ، فيه انصراف عن كل شيء ، وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء . وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكرراً وأدق حيلة ؛ فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقى من يدك ولا يحوّل عنه عينيك ، ولكنه يسايرك في القراءة كأنه الرفيق ، ويلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ ، فإذا هي تختلط بما تقرأ ، وإذا هي تحول نفسك عما في الكتاب ، وإذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شيء مما تقرأه إلى نفسك .

وقد يغلو هذا الشيطان في المكر بك والكيد لك ، فلا يسايرك في القراءة ، ولا يلقى في نفسك كلمات ولا خواطر ، ولا يصرفك عن الكتاب وإنما يصرف الكتاب عنك صرفاً ، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال . تراها وأنت كاره لرؤيتها ، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد إلى ذلك سبيلاً . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك . والكلمات أمام عينيك ولكنها تفر منك . هي تفر وأنت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقى بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان

فلا يتكلف في تعذيبك جهداً ولا عناء ، وإنما يداعبك في رفق ويلاعبك في استهزاء . فأنت في حديثك أو في تفكيرك أو في قراءتك ، وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تترأى لك ، فتتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ ، ثم لا تلبث أن تنجلي عنك في سرعة البرق الخاطف ، فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة ، وسانحة بارحة ، وملمة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ، ويشق عليك ولم تدركه المشقة ، ويؤثسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ، ينظر إليك في احتقار وازدراء ، وفي سخرية واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قريتها في الريف . وما زلت أجده الآن والسفينة تمضي بي إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنوناً من السير ، تجاهده جهداً عنيفاً حين يهبج وتضطرب به أمواجه وتعصف به الرياح ، وتداعبه دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على سطحه النسيم . وكم منيت نفسي منذ أخذت أتهياً لهذه الرحلة أن أجده هذه اللذات المتباينة التي يجدها المسافرون فيما يكون بين السفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووثام . ولكن هذا الشيطان قد حال بيني وبين ما كنت أتمنى من ذلك ، فأفسده على إفساداً ونغصه على تنغيصاً . ولو أنه ألقى بيني وبين ما أريد من ذلك حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً لكان اليأس منه مريحاً ، ولكنه يشرف بي على اللذة لإشراقاً ويمعن بي فيها لإمعاناً ، ثم يقطع أسبابها قطعاً ،

ويصدني عنها أو يصدّها عني أشد ما أكون كلفاً بها واندفاعاً إليها
واستعداداً لاجتناب ما هيأت لي من ثمرات .
جنبك الله الندم أيها الصديق ، وعصمك من أثقاله فإنها لا تحتمل ،
ومن آلامه فإنها لا تطاق .

ولست مع هذا كله مبغضاً لشیطان الندم ، هذا الذي يعذبني ،
ولا منكراً عليه ؛ فأنا أعطى الحق من نفسي وأقبل راضياً أو كارهاً
ما ليس من قبوله بدّ . فأنا قد اقترفت الإثم ، ولا بد من أن أحتمل
أثقاله وأتجرع آلامه . والإثم عندي شجرة لا بد من أن تؤثي ثمرها إذا
صادت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار . وإنما تصادف الخصب
وأسباب النمو والإثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دقيقة الحس قوية
الشعور . والندم عندي آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات
السمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنيات ، ودليل من أدلة
خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه .
وإني لأبغض النفوس الجذبة التي لا تعرف ألماً ولا ندماً ، والتي تموت
فيها أشجار الآثام والخطايا ، كما يموت النبات في الصحراء المحرقة المهلكة .
وإني لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيئ الرديء ، التي
تفرس فيها أشجار الخطيئة والإثم ، فلا تموت ولا تجف أعوادها ،
وإنما تثمر خطايا وآثاماً .

أترى أيها الصديق أني مغرور مسرف في الغرور ! أتعزى عن الألم
والندم بتزكية نفسي ، وأكاد لا أكره ما أقترف من الآثام لأنه يشعري

بأنى كريم النفس نبيل الطبع نقي الضمير ؛ ولكن لا تنكر على هذا
الغرور ، ولا تلمنى فيما أتمس لنفسي البائسة من ضروب التسلية وألوان
العزاء . فلولاً هذا الغرور لأهلكنى ما أجدر من الحزن ، ولقضى على
ما أحس من الندم ، ولدفعت إلى اليأس المهلك دفعاً .

ولمى لأعجب كيف انجلت عنى غمرة الأمل وصرفتُ صرفاً عن
هذه الخيالات الجلوة التى كنت أخلقها لنفسي خلقاً ، وأستعين بها
على ما كنت مقدماً عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة
فى فرنسا ، وما تدخر لى من لذات مختلفة لا تنفى . فأنا أحاول الآن
أن أتصور هذا البلد الذى أنا مقبل عليه ، فلا أرى إلا هذا البلد
الذى أنا منصرف عنه .

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى إلا جامعتكم المصرية . وأحاول
أن أتمثل رفاقي من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ . ثم
أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا القاهرة وأحاول آخر الأمر
أن أضلل نفسي وأعللها وأمنيتها الأمانى الآتية ، أحاول أن أتمثل المرأة
الباريسية فلا أرى إلا حميدة قائمة أمامى كهيتها يوم كانت تستعد
للرحيل فى بكاء متصل وصمت عميق .

مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكروه على أن أنظر إلى وراء . فلا
تلمنى إذا حين أعجز عن أن أخرج من نفسي ، وعن أن أتمس العزاء
إلا فيها ؛ فأنا أتلهى بهذا الغرور عن هذه الأهوال المنكرة التى تأخذنى
من كل مكان وتسعى إلى من كل صوب . وما لى لا آلم ولا أندم

ولا أتجشم من ذلك أهوالاً وقد اقترفت إثمًا عظيمًا حقًا ؛ لقد كنت
أخافك أيها الصديق فلم أصور لك من هذا الإثم : إثم الطلاق ،
إلا أيسره وأهونه . لم أصور إلا ما فيه من ظلم البريء والاعتداء على من
لم يستحق الاعتداء ، وقد لقيت منك مع ذلك لومًا شديدًا وإنكاراً
عنيفاً ، ونبوًا كاد يفسد ما بيننا من الود ، فكيف لو صورت لك حقيقة
الإثم الذي اقترفته ! وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذي أخفيته عليك .

لقد أفلت منك أيها الصديق ، ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت
الأسباب بين حميدة وبينى ، وبعدت بي الدار ، فلا أمل الآن في
إصلاح ما فسد ، ولا خوف الآن من أن تصدنى عن الرحيل . الآن
أستطيع أن أظهرك على نفسى كلها . . . والآن أستطيع أن أنبئك بإثمى
كله ، وأنا أعلم أنك ستحتقرنى وستزدرينى . . . وما يعينى من ذلك وأنا
أحتقر نفسى وأزدرىها ! ! فلن يصرفنى احتقارك إياى وأزدرائك لى ،
ولن يصرفنى احتقارى لنفسى وأزدرائى إياها عن أن أتمثل هذا الإثم
القيح وأملأ به خلوتى ، وأنغى بآلامه فيما بينى وبين نفسى غناء قبيحاً
منكراً بشعاً أكرهه أشد الكره ولكن أمعن فيه أشد الإمعان .

لن يصرفنى ازدرائك لى وأزدرائى لنفسى عن هذا كله ، وعن أن
أسجل نغمات هذا الغناء البشع فى هذا الكتاب الذى أرسله إليك . .

لست ظالماً فحسب أيها الصديق ، ولكنى كافر للنعمة منكر للجميل .
فلم تكن حميدة زوجى فحسب ، ولكنها كانت منعمة على منقذة لى .

رضيت بي بعد أن نبذني غيرها ، ومنحتني ودها وجها بعد أن أعلن غيرها
أنى لست أهلاً لود ولا حب .

إن لهذا قصة لم أنسها ولن أنساها ، لأنها مزقت نفسى تمزيقاً ،
وعذبت قلبى تعذيباً ، وأذنتى فى أعز شىء على وهو الغرور والاعتداد
بالنفس .

لقد كان أبواى كغيرهما من أهل الريف يعداننى لعروس غير
حميدة . وكان أهل هذه العروس يعدون ابنتهم لى منذ نشأنا صبيين .
وكانت الفتاة ابنة عمى ، ولم تكن جميلة ولا وسيمة ، ولكنها على ذلك
كانت محبة إلى أثيرة عندى ، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث
الزواج .

ولكنك لم تر وجهى ولا شكلى أيها الصديق . وأكبر الظن أنك
عرفت من صوتى أنى قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن
أروق العذارى ، وأرضى أهواء النساء . ولم أكن أرى ذلك فى نفسى ولا
أعترف به عليها . ومتى رأيت رجلاً قبيحاً دميماً يؤمن بأنه قبيح دميم !
ولكن فهمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه أشد النفور ،
وكانت تكره أن يتحدث إلها أهلها وأترابها بأمر الزواج ، ولكنها لم
تكن تظهر الكره وتعلن الإنكار ، حتى إذا جد الجد وتقدمت بها وبى
السن ، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون فى أمر الخطبة ، جهرت بالرفض
جهرًا وأعلنت الإباء إعلانًا ، وخرجت فى ذلك عما هو مألوف من
أمثالها من فتيات الأسر فى الريف ، فنبت على أمها نبواً وامتنعت

على أبيها امتناعاً ، وأعلنت أنها تؤثر الموت على أن تكون زوجاً لهذا الشاب الدميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى وأثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور . ثم تصور أن حميدة كانت أوبرع من ابنة عمى جمالاً وأكثر منها مالا ، وأذكى منها قلباً ، وأحسن منها مستقبلاً ، وأنها مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته وأظهرت إنكارها ، وتعمدت أن يصل حديث هذا الإنكار إلى أهلى ثم إلى ، وكان هذا الإنكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الخطبة ثم وسيلة الزواج . وما زالت فهيمة تنتظر الزوج إلى الآن ، ولكن حميدة قد طلقت . فانظر إلى الإحسان كيف يكافأ بالإساءة ، وإلى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق ! ومع ذلك فلانى لأنظر الآن فى المرأة أمامى فأستكشف فى وجهى وخلقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر وعذر لابنة عمى ، وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف أنى أسافر على سفينة إنجليزية ؟ فقد تهيأت لهذه السفينة وأنبأنى المنبثون بأن المسافرين على السفن الإنجليزية إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصاً لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذه المترفون . فلما أقلعت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت ما يتصل به من زينة ، وكانت صورة حميدة لا تفارقنى ،

وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين إلى حين . فلما تهيأت للخروج من غرفتى سمعت قهيمه تنكر قبحتى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير لى . هنالك نظرت فى المرأة فرأيت ، ثم استحييت ثم بكيت ، ثم نزعنا هذا اللباس نزعاً ، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء . ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بأن آكل فى غرفتى . وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء ، فما أرى منذ الآن إلا أنهن جميعاً فهيمة .

أترى إلى أى حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور ؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً ، ولن تعرف حميدة أنى أجد من الندم على فراقها ما يفسد على حياى لإفساداً ، ويوشك أن ينتهى بى إلى شر ما ينتهى إليه الأحياء .

ليتنى سمعت لك ! وليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر ! فما أظن إلا أنى مقدم على سراب أحسبه ماء ، حتى إذا بلغته لم أجده شيئاً .

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق ، ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكروهون على أكثر ما نأتى من الأمر ، وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله . فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمرى إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه . وكنت أظن أن أكثر من عرفهم فى القاهرة وعرفونى يجهلون أمر زواجى جهلاً تاماً . وكنت واثقاً بأنى أستطيع أن أكذب على الجامعة إن أردت ، وأن أزعم لها

أنى أعزب وأن أمسك على زوجي وأسافر إلى أوروبا لا أصطحبها .
وكننت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب على الجامعة .
ولم يكن يدفعني إلى هذا إلا حب الصدق وإيثار الخلق والضم بكرامة
العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفي . وكننت أحمد من نفسي
هذا الإقدام على التضحية ، وهذا النصيح للجامعة ، وهذا الإلحاح
في أن أكون صادقاً معها في السر والعلانية معاً .

وكثيراً ما وجدت في هذه التضحية التي كننت أحبها وأرضى عنها
مظهراً من مظاهر الغرور ، ومصدراً من مصادر العجب والته والإكبار
لنفس ، وكننت أقول لنفسي إذا خلوت إليها : ليس كل الناس قادراً على
أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد . فأنا إذاً شخص نادر وفرد
ممتاز . ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخلق ، كما أنها ستفخر بعد
قليل بجدي واجتهادي وكفايتي في البحث وقدرتي على الدرس والتحصيل .
وكان هذا الخاطر الجميل يملؤني ثقة بنفسى وإكباراً لها ورضاً
عنها . ولعل ذلك كان يظهر فيما كننت آتى من حركة وما كننت ألقى
من جمل . بل لعل هذا كان يظهر فيما كان وجهي يأخذ أحياناً من الصور
والأشكال . ولكن لا تسلم عما أدركني من الدهش ، وما أصابني من
خيبة الأمل ، ولم ملأ قلبي ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين
دعاني سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائى ،
ولم يتكلف الأنس بمقدى ، كما كان قد تعود من قبل ، وإنما لقينى
فاتراً وحدثني بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر

والاستطالة ما أنكرت ، ثم لم يلبث أن ألقى على حديثه قصيراً متقطعاً
سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضاً ، وقد اتخذ صورة الأستاذ ولهجته ،
وصوت الواعظ الغالى فى التأنيب ، فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب
وهو القدوة ، وما ينبغى له أن يغش وهو الأسوة ، وقد كانت
الجامعة مخدوعة لى . فالآن وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع
الجامعة أن تزهد فى زهداً ، وأن تنصرف عن انصرافاً . بين الذين تقدموا
للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون أن يشغلوا مكانى فى البعثة ،
وأن يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين ، ومخلصين غير متورطين فى
الغش ولا متكلفين للخداع . والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل
عن إرسال البعوث ، وأن تغلق أبوابها لإغلاقاً فى وجه الطلاب الذين
يختلفون إليها على أن تهبط للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على
الكذب والغش ، وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضقت بهذا الواعظ الثرثار ، وتعجلته إتمام
الحديث والانتهاء إلى ما يريد . فلم يتردد فى أن يلقي إلى ما عنده إلقاء
فيه كثير من الازدراء . قال : زعموا أنك متزوج يا سيدى ، وقد
زعمت لنا أنك حر طليق .

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق ، وما أدري أنغفر لى ؟ !
فقد أسأت بك الظن وأتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصاً
حسن النية تريد أن تحول بينى وبين الظلم ، كما أقدمت أنا على تطليق
حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الحيانة والإثم .

أصطفا
لى الجامعة
لضيق بكثرة
من نفس
هذا الإلم

وأرضى عنه
تبه والإكثار
من قادر على
ن نادر ولا
ستفخر به
والتحصيل
أ لها رضاء
أ كنت إلى
أ من الصبر
أصايبى من
ظراب حين
حة للقاء
وإنما لفتى
هم والتكبر

نعم ! أسأت بك الظن واتهمتكَ ، ورأيت ما بيننا من الصلات
وقد تصرم وتقطعت أسبابه ، وأحسست شيئاً من الحزن لكذب ظني
بك وخيبة أملِي فيكَ . وكان هذا كله سريعاً مسرفاً في الإسراع لم
أكد أتنبه إليه ، ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن شيئاً غيره وغير
حديثه كان يشغلني . فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف ؟
ومن ألقى إليك هذا الهذيان ؟ وكيف تسمع الجامعة لكل ما يلقى من القول
إليها ! وكيف تصدق كل ما يرفع إليها من الحديث ! وما ينبغي لك
أن تلومني هذا اللوم ، وتؤنبني هذا التأنيب ؛ قبل أن تتحقق أنك
تهمني بما لا أستطيع له دفعاً ، وتأخذني بما لا أجد منه مخرجاً !

قال الرجل : مهلاً يا سيدي ، فليس يغني عنك ما أنت فيه
منذ الآن من التجاء إلى الجدل وشغف بالمرء ؛ فقد ألقى إلينا أنك
متزوج ، ثم ألقى إلينا اسم الأسرة التي أنت مصهر إليها ، فلم نأخذ
بالظنة ولم نطمئن إلى الريبة ، وإنما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى تبين
لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلاً . وما دعوناك اليوم
إلا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة فرد إليك ما أخذنا منك ، ونسترد
ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب إلى عقلي كله ، وحرصى على البعثة : قد كان
ذلك ممكناً منذ أيام ، أما الآن فلا . ثم قدمت إليه صك الطلاق .
فلم يكده ينظر فيه حتى تغيرت حاله معي تغيراً تاماً ، وإذا هو يضافحني
مكبراً لي معجباً بي . ألم أقدم على عمل خطير ! . . . ثم تبسط معي في

الحديث وقد ضم الصلح الذى دفعته إليه إلى ما ينبغي أن
يحفظ من أوراقه عنده ، وما زلت أتلطف له وأمكر به ، حتى
أطلعنى على ذلك الكتاب الذى ارتفع إليه بالنميمة وأنبأه بزواجى .
فقرأت ويا شر ما قرأت ! وعلمت ويا شر ما علمت ! علمت أن
صاحب هذا الكتاب صديق لى متصل بى ، يتكلف المودة ويظهر
النصيحة والإخلاص ، ولكنى علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب
ولا متعرف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضياً ساخطاً ومسروراً محزوناً . راضياً لأن
البعثة لم تغفل منى ، وراضياً لأنك أنت لست الواشى بى . وساخطاً لما
انطوت عليه جنوب الناس من المكر والخداع ، ومن الكذب والنفاق ،
ومن الحسد الذى يفسد عليهم كل شىء .

فلم يكن لهذا الصديق الذى وشى بى طمع فى البعثة ولا طموح
إليها ، وإنما هو الحسد وحده . رأى أنى سأسافر إلى حيث لا يستطيع
ولا يأمل أن يسافر ، ورأى أن حالى قد تتغير وأن حياتى قد تصلح ،
وأنى قد أرقى إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو إليها ،
فكره ذلك وضاق به ، ثم جد فى أن يحول بينى وبين ذلك ، وأن يمسكنى
فى المنزلة التى أمسكته فيها الظروف ، فأبقى مثله خاملاً متواضعاً
محدود الأفق من البيت إلى الديوان ، ومن الديوان إلى البيت ، والقهوة
بين ذلك أحياناً .

نعم أيها الصديق ! خرجت راضياً وساخطاً ، وأنا لا أفكر حين

لصالح
بأش
مراع
ره
مخل
من القل
بغنى لك
فقن أنك
ما
أنت ل
لينا أنك
للم نأخذ
فى تميز
الك اليوم
ونسرد
قد كان
لطلاق
عبافحنى
معى لى

كنت أحس الرضا أو أجد السخط إلا في شيء واحد ، وهو أن كيداً كان يكاد لي فخلصت منه ، وأن مكراً كان يمكر بي فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم في نحورهم . ثم هبط بي القطار إلى البحر ، وأخذت السفينة تمضي بي إلى ما وراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمني وتلح عليّ ، وأخذ الندم يثير في نفسي من الخواطر ما يثير ، وإذا أنا الآن أسأل نفسي عن هذه الوشاية التي أنكرتها : ألم تكن خيراً قد صرف عني وحيل بيني وبين الانتفاع به ؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بيني وبين البعثة لكان هذا الإخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب ، ولكان نذيراً بما كان ينتظرني من الشر إن تمت على ما بدأت من الظلم ، ولكان خليقاً أن يردني إلى حميدة أو أن يرد حميدة إليّ . ولكن الله لم يرد إلا أن يقدم بين يدي هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرني فيها من الآلام ، وطليلة لما ينتظرني وراء البحر من الشر .

وصدقني أيها الأخ العزيز . إنني لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجلالاً شديد التشاؤم ، لا أنتظر خيراً ولا نجاحاً ، وإنما أنتظر شرّاً كثيراً وإخفاقاً شنيعاً . ولو طاوعت نفسي لما استقررت في مرسيليا إلا ريثما آخذ السفينة التي تردني إلى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ؟ وماذا أقول لنفسي ؟ وكيف ألتقي غيرك من الأصدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين ؟ وماذا أقول لأهلي وماذا أقول لحميدة ؟ أأمضي في فراقها ؟ ولماذا وأنا لم أفارقها عن قِلي ولا عن بغض ؟ أم أعود إليها نادماً بائساً

معتد
الحد
لا ت
أن
ومهم
تمضي
ومهم
إلى

لعل
لم أ
أخذ
هذه
كما
هذا
بحر
هـ
فليت

في

معتذراً مستغفراً ؟ ولكن أسمع لي ؟ أتعطف علي ؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذى هو بالهذيان أشبه منه بالجد ؟ إن السفينة لتمضى أمامها لا تلوى على شيء ، ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا . ولو أردت أن أقفها لما بلغت من ذلك شيئاً مهما يكن إلحاحي وصياحي ، ومهما أتخذ من وسيلة عند القطبان . وإنما حياتنا كهذه السفينة تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد . ومهما نلح ، ومهما نصح ، ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها إلى وراء ، ولن ننتقى الانتهاء إلى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء . فلأَمْضِ إِذَا إلى حيث تريد السفينة أن تنتهى بي . ومن يدري ! لعل أعود إليك بعد حين ولم أر باريس ، ولم أختلف إلى السربون ، ولم أشهد أندية اللهو والمتاع . ومن يدري ! لعل لا أعود إليك حتى آخذ من هذا كله بحظ . وكل ما أستطيع أن أقطع به الآن هو أن هذه السفينة التى تعبر بي بحر الروم ، ستوفى بي من بعد بحر إلى بحر ، كما يقول مسلم بن الوليد . ولكن البحر الذى ستوفى بي إليه ليس هذا ولا ذاك من أولئك الأجواد الذين كانوا يغنون الشعراء ، وإنما هو بحر آخر عريض لا حد لعرضه ، عميق لا آخر لعمقه . هو بحر هذه الحياة الأوربية المملوءة باللذة والألم ، المفعمة بالخير والشر . فليت شعري أرسب فيه أم أطفو عليه ؟

الآن أحس أنى قد أطلت عليك . وإنما يذكرني بك ويثير في نفسي الإشفاق عليك من الإطالة هذه الحركات التى أسمعها

تكثر من حولي في الغرف المجاورة وفي الطريق أمام هذه الغرف ؛
فقد فرغ السفر من لهوهم ورقصهم وعادوا إلى غرفهم يقضون فيها
ما بقي لهم من الليل .
وداعاً يملؤه الحب والود والحزن أيها الصديق ! فما أدري ! لعل
لا أكتب إليك بعد هذا الكتاب .

١٣

أغسطس في . . .

أحسست كأنني أسمع صوتاً يناديني من بعيد ، وكأنني أدنو من هذا
الصوت ، أو كأنه يدنو مني شيئاً فشيئاً . واستمر هذا الحس لحظة لست
أدري أطالت أم قصرت ، ولكنني وجدتني قد قربت من الصوت
أو قد قرب الصوت مني ، فإذا هو بين يدي ، وإذا أنا أسمع طرقات
على الباب ، وإذا أنا أصبح دهشاً أو كالدهش بلغتي العربية الشعبية :
« مين ؟ » وإذا الباب يفتح ، وإذا شخص يدخل خفيفاً رشيقاً
سريع الحركة ، سريع الكلام ، وإذا هو يقول في صوت امرأة :
لقد أشفقت عليك ، ولقد حسبت أنك لا تفيق ، وإذا هو يسرع
إلى النافذة فيجذب عنها الأستار ويفتحها ويأذن للشمس بالدخول .
وأنا دهش ذاهل ، أدعو نفسي وأجمعها فتجتمع لي ، وأنظر وأشعر
فإذا أنا في غرفة الفندق التي أويت إليها أمس حين تقدم الليل .

١٣٦

ولا
تقد
وأذا
مر
وأني
ووض
فندق
طعام
يكن
الغد
ودخل
كل
حتى
الوثير
يتي
لا أنا
بضطر
بغوص
أفرغ
أبامي

وإذا الخادم قد أقبلت تحمل إلى طعام الإفطار ، وإذا النهار قد تقدم حتى بلغ النصف أو كاد يبلغه ، وإذا أنا أثوب إلى نفسي وأذكر من أمرى ما كان قد ذاده النوم عنى ، فأعلم أنى قد بلغت مرسيليا أثناء الليل أمس ، وأنى كنت متعباً مكثراً ما أرت ، وأنى ذهبت إلى أول فندق دلنى عليه ذلك الذى حمل أمتعى ووضعها ووضعنى معها فى عربة وأخذ منى ما أعطيته من نقد وقال للسائق إلى فندق جنيف . وقد بلغت الفندق بعد الساعة العاشرة ، فلم أقبل طعاماً ولا شرباً ، ولم أزد على أن أجبت على ما وجه إلى من أسئلة لم يكن منها بد ، وطلبت غرفة آوى إليها ، وأنبت أنى سأسافر من الغد إلى باريس ، ثم لم أكد أبلغ الغرفة حتى خرجت من ثياب ودخلت فى ثياب ، وأويت إلى السرير مسرعاً أتمنى لقاء النوم وأشفق كل الإشفاق ألا ألقاه . ولكنى لم أكد أنزل فى هذا السرير الوثير حتى أحسست راحة وهدوءاً ودعة لم أعهد لها قط . فأين هذا السرير الوثير الذى أتقنت تسويته مما ألفت فى دارنا فى ريف مصر ، أو فى بيتى فى القاهرة من هذا الفراش الحشن الغليظ . لقد خيل إلى أنى لا أنام على شىء أو أنى أنام على فراش من الزئبق . كان جسمى يضطرب فى هذا السرير فلا يجد شيئاً يقاومه أو يثبت له ، وإنما كان يغوص فى الفراش غوصاً . ولم أكد أطيل التفكير فى هذا ، ولم أكد أفرغ للتفكير فى غير هذا مما شغلنى آخر أيامى فى القاهرة وأكثر أيامى وليالى فى السفينة ، وإنما أخذت أفقد نفسى قليلاً قليلاً ،

ثم لم أشعر إلا بهذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى لم أكد
أرد عليه حتى فتح له الباب ، وإذا أنا أرى هذا الشخص الرقيق :
والآن وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها ، وردت على
اليقظة حسى كله وشعورى كله ، وذكرت فى لحظة قصيرة جداً كل
ما أنبأتك به أيها الصديق ، أنظر فأرى الخادم ذاهبة جاثية ، تهيب
طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير ، فأخرج من غفلة
النوم لأدخل فى غفلة الدهول . فأين أنا ؟ وما هذا الحرص على تيسير
الأمور كلها لى ؟ من زعم لهؤلاء الناس أنى فى حاجة إلى عنايتهم
هذه الدقيقة ، وإلى رفقتهم هذا الغريب ؟ هذا السرير الوثير ،
وهذه الخادم تحمل الطعام إلى وتفتح النافذة وتدنى منى المائدة لأفطر
فى سريري ، أترام ظنوا أنى مريض ! فما أحسب أنهم ظنوني غنياً من
كبار الأغنياء ؛ فما كان وجهى لينبئ بذلك ، وما كان شكلى ليدل عليه.
والفتاة تتحدث ، وتتحدث والحديث ينبعث من فمها حلواً عذبةً
رقيقاً ، أحاول الآن أن أتمس له تشبيهاً فلا أظفر بما أتمس ، وإنما
أصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا الحديث إلى
ويغمرنى فيملؤنى دعة وراحة ولذة وهدوءاً . كنت أشعر كأن إنساناً
يرسل إلى نفحات متصلة من الطيب تأخذنى من كل مكان . وكنت
أحاول أن أرد عليها بعض الحديث فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ؛ لأنها
لم تكن تمكننى من ذلك من جهة ، ولأنى لم أكن أريد أن أقطع
هذه اللذة من جهة أخرى . حتى إذا هيات لى كل شيء ودعتنى

إلى الطعام همت أن تنصرف ، فردَّ إلى الرشد ، وثبت إلى نفسى
وسألها متردداً متلهفاً : أين تذهبين ؟ قالت ضاحكة : أذهب إلى
عملى . قالت : وما عملك ومن تكونين ؟ أو ليس من عملك أن تمكثى معى
حتى أفرغ من طعامى ؟ قالت وهى تغرق فى الضحك : « أما عملى فهو
هذا الذى رأيت والذى ترى . أما أن أمكث معك حتى تفرغ من
طعامك فليس من عملى وليس إليه من سبيل . وماذا تكون الحال
لو أنى مكثت مع كل من أحمل إليه الطعام من أهل الفندق حتى
يفرغ من طعامه ؟ » . ثم أرسلت إلى نظرة فيها دعاية وإبتسامة يملؤها
الظرف ، ومضت مسرعة لا تمشى على الأرض وإنما تمشى فى الهواء ،
ثم أغلقت من دونها الباب وتركتنى ذاهلاً كالأبله أمام هذا الإفطار
الذى تركته وقتاً غير قصير معرضاً عنه إعراضاً ، ثم ناظراً إليه دون
أن أقدم عليه .

وإنى لنى ذلك وإذا الباب يطرق ، فأذن فتدخل الفتاة نفسها
قد أقبلت تحمل آتية الطعام . فإذا رأت كل شىء كما تركته منذ حين
سألتنى دهشة عن أمرى ، فأسرع إلى الطعام ضاحكاً وأنا أقول :
ألم أطلب إليك أن تمكثى معى حتى أفرغ من الإفطار ؟ لقد أبيت
فلم أفطر ، وما أنت ذى تعودين ، فانظرى كيف أسرع إلى الطعام .
وكنيت مزماً أن أسافر مع المساء إلى باريس ، ولكنى لا أدرى
لم غيرت رأى ، أو لعلى أدرى لم غيرت رأى ! فقد قضيت فى القاهرة أياماً
ثقلاً وأجهدنى عبور البحر لكثرة ما فكرت وقدرت ولكثرة ما أرقّت .

الذى
من
وردت
بيرة
أثيرة
رج من
ن على
إلى
ربور
المائة
نولى
ليل
ها
نفس
الحديث
كان
كان
مبيلا
يد
شئ

وليس ما يدعوني إلى أن أسرع إلى باريس ؛ فليس الفصل فصل
درس ، واللغة الفرنسية موجودة مسموعة حيناً وجهت من أرض فرنسا ،
فما يمنعني أن أقيم في هذا الفندق الجميل المترف أياماً أعود نفسي
فيه حياة الفرنسيين ، وأخذ نفسي بما لا بد من أن آخذها به من
العادات والتقاليد حتى لا أظهر غريباً مضطرباً حين أصل إلى
العاصمة ؟ وما يمنعني أن أعود نفسي العبث في مياه البحر على الساحل
قبل أن أبعد في السباحة وقبل أن أضطر إلى مصارعة الأمواج الضخام !
لأمكنك إذاً في هذه المدينة أياماً أستمتع فيها بالراحة وأتمرن فيها على
الحياة الجديدة ، وأنعم فيها بدخول هذه الفتاة على تحمل الإفطار
إلى إذا أصبحت . فمن يدري أين يكون مستقرى في باريس ! أأجد
غرفة كهذه الغرفة ، وسريراً كهذا السرير ، وفتاة كهذه الفتاة تحمل
إلى الطعام في كل صباح ؟ وهذه المدينة وسط بين الجو الأوربي
الخالص والجو الإفريقي الخالص ؛ فهي على البحر الأبيض المتوسط ،
وفي الانتقال الفجائي من جو إلى جو خطر على صحة الجسم ، وقد
يكون فيه خطر على صحة النفس أيضاً . فلاصطنع الأناة ، ولأدع هذه
العجلة فإنها لا شك من الشيطان . وما يمنعني أن أستأنى وقد تركت
مصر وجعلت من بينها وبينى بجرأ عريضاً ، فلست أخاف على البعثة ،
ولست أخشى أن أرد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسى أيها الصديق من التعلات والمعاذير ما أقنعني
بأن الإسراع إلى باريس خطئ وحق ، وما حملني على أن أنبئ

أصحاب الفندق بأنى سأقيم أياماً ، وعلى أن أقدم على الكذبة الأولى
فى جيانى الجديدة فأكتب إلى مراقب البعثة بأنى متعب محتاج إلى
الراحة ، وبأنى سأبلغ باريس بعد أسبوع .
والغريب أنى قضيت النهار هادئاً مستريحاً ، لا أكاد أفكر فيما
تركته ولا فىمن تركت ورأى قبل أن أعبر البحر ، ولا أكاد أشعر
بشيء من هذا الألم أو هذا الندم اللذين كانا يثقلان علىّ فى السفينة ،
واللذين صورتهما لك تصويراً خفيفاً فى آخر كتبتى إليك ، واللذين
كنت أظن أنهما سيلزمانى لزوم الظل . لم أكد أشعر بشيء منهما :
ماذا أقول ! بل لم تراء لى صورة حميدة إلا مرتين أو مرات قليلة .
وكانت تراء لى من بعيد شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن ،
ولكنى كنت أراها مسرعة كأنها لا تريد أن تقف عندى ولا أن
تثبت لى .

وهأنذا أكتب إليك الآن بعد أن عدت إلى غرفى وقد كاد يبلغ
الليل نصفه ، ونظرت فإذا الغرفة قد هيئت لاستقبالى ، وإذا السرير
قد هيئ لإيوائى ، وإذا دورق من الماء وكوب قد وضعاً على هذه
المائدة الصغيرة التى تلى السرير . ما شاء الله ! ما تعودت مثل
هذه العناية . ولقد كان الظمأ يوقظنى فى الریف ، ولقد كان الظمأ
يوقظنى فى القاهرة ، فما كنت أجدر إلى اتقائه سبيلاً إلا أن أتكلف
النهوض والسعى إلى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التى كانت
تبرد لنا الماء . فأما الآن فإن الظمأ يستطيع أن يهجم علىّ وأن يوقظنى ،

فسأعرف كيف أردّه ردّاً ، وكيف أعود إلى النوم كما خرجت منه
لا أجد في ذلك جهداً ولا عناء .

على أني لم أكّد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادني من الظماً
في مهبّ حتى أحسست الظماً ، فأصب شيئاً من الماء أحسوه في
هدوء . ولكن ماذا ! إنه لا يرد عني ظماً ولا ينقع لي غلة ، وإني
لا أجد له لذة حين أحسوه ، ولكنني أذكر قصة الأخطل وحديثه حين
عرض عليه الماء في مجلس عبد الملك فقال : شراب الحمار .

ولست حماراً يا سيدي مهما يكن رأيك فيّ وفي ذلك الشيخ ،
أو قل كنت حماراً قبل أن أعبر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق ،
وصعدت إلى هذه الغرفة وأويت إلى هذا السرير ، وانغمست في
فراشه الوثير ، وأدركني ما أدركني من النوم العميق ، وأيقظني هذه
الفتاة ذات الوجه المشرق والثغر المضيء والحديث الحلو والروح
الخفيف ، نظرت فإذا أنا لم أبق حماراً ، وإذا أنا قد مسخت إنساناً
أو قل صورت إنساناً إن كانت كلمة المسخ لا ترضيك ، ولكنني على
كل حال قد دخلت النوم حماراً وخرجت منه إنساناً يحس ويشعر
ويعقل ويدوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون .
أصبحت إنساناً ، وذكرت قصة الأخطل ، فعفت شراب الحمار ،
وآليت لا أرد الظماً إلا بمثل ما رده به الأخطل . ولا تغضب يا سيدي
ولا تثر ، فأنا في بلد قلما يشرب أهله الماء . ولقد شهدت غداء الناس
وعشاءهم ودهشت حين سألتني الخادم ماذا أريد أن أشرب ، فلما

طلبت إليه الماء أظهر دهشاً لم يكن أقل من دهشى حين ألقى على سؤاله . ثم أقبل على بالماء ، وبعد لحظة حلق النظر في ، ثم قال : ألا يريد سيدى شيئاً من النبيذ ؟ . فلما أبيت قال متبسّطاً في لغة أهل الجنوب وطجتهم : « سيدى مخطيء فالماء لا ينقع الغليل هنا » . ثم انطلق وعاد إلى بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ . ونظرت فلم أر الماء في حجرة الطعام كلها إلا على مائدتى ، فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت أحسب أن الخادم إنما يرغبني في النبيذ ترويحاً لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامي عرفت أن الناس يشربون النبيذ في هذا الفندق كما يشربون الماء لا يدفعون له ثمناً ، أو هم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت إذاً يا سيدى ألا أرد الظماً بشراب الحمار ، وأزمت أن أدفعه بهذا الشراب الذى لم أنتظر قدومى إلى فرنسا لأعرفه وهو الجعة ، فأدق الجرس وأنتظر أن يطرق الباب وأن يفتح وأن تدخل على هذه الفتاة . ومن يدرى ! لعلى لم أزد الماء ولم أفكر في قصة الأخطل ولم أبتغ هذا الشراب الحرام إلا تعلقة لأدق هذا الجرس ، ولتدخل على هذه الفتاة ، وليكون بينها وبينى طرف من حديث يقصر أو يطول . فقد جعلت أتهم نفسى في كل ما آتى وفى كل ما أريد منذ استيقظت ظهر اليوم . ولانى لأتئين أن منظر هذه الفتاة وعدوبة حديثها وخفة روحها وحسن خدمتها ودخولها على مع الصبح وإذنها للشمس أن تغمر غرفتى ، كل هذا هو الذى بطأنى . عن باريس وحبب إلى المقام في هذا الفندق .

فأنا إذا فكرت أو قدّرت أو هممت أو فعلت ، أسأل نفسي لعل من وراء هذا التفكير والتقدير ولعل من وراء هذا الهم والفعل غرضاً خفياً غير ما توخيت من الأغراض الظاهرة . والباب يطرق وأنا أعلن الإذن بصوت مرتفع تظهر فيه الלהفة وقليل من الاضطراب . والباب يفتح ، ولكن ماذا أرى ! أرى رجلاً شاباً قد أقبل فاتراً متثاقلاً وقال فى صوت خافت يملؤه الكسل والسأم والضيق : سيدى يريد ؟ قلت وأنا أنكلف كظم ما يملؤنى من الغيظ وإخفاء ما لا أشك فى أنه ظهر على وجهى وفى عيني من نخبة الأمل ، قلت وكأنى ألقىت فى وجهه ما قلت إلقاء : أريد زجاجة من الجعة . قال : نعم صغيرة أم كبيرة ؟ قلت مغضباً : أكبر ما عندك . ثم انصرف عني وعاد إلى بزجاجته وقدحه . فلما هم أن ينصرف قلت : فقد أحتاج إلى أخرى ، وما أحب أن أشق عليك حين يتقدم الليل . قال مبتسماً : إن سيدى لطريف ، ولكن عندى ما يريد سيدى . ثم مضى وعاد بإناء فيه الثلج وفيه زجاجة أخرى من الجعة ، وتمنى لى ليلاً سعيداً ، وأغلق من دونه الباب . ولعلك تنكر أيها الصديق إقبالى على الشراب ، وعلى الشراب خالياً ، وعلى الشراب بعد أن كذب الظن وخاب الأمل . ولكن ما رأيك فى أن كذب الظن ونخبة الأمل ، هما اللذان دفعاني إلى الشراب دفعاً ؟ فقد وجدت على الحظ وسخطت على الزمان ، وأبيت أن أذعن لمكر الأقدار وغدر الظروف ، وأقسمت لا أذوق النوم حتى أرى وجه هذه الفتاة المشرق وثغرها المضىء وأسمع حديثها الخلو وأستمع بروحها

الخفيف . وأى شيء أعون لى على السهر من الشراب والتفكير فيها
والكتابة إليك ! لا تغضب ، فما كنت لأكتب إليك لولا أن أخلف
الحظ ظنى وكذب أملى ، واضطرنى إلى أن أستعين بك على الليل فى
مرسيليا ، كما كنت أستعين بك على الليل فى القاهرة . لا تغضب ،
فقد عرفتنى أوتر الصدق على الكذب ، وأكره أن أغشك أو أنخى عليك
ما أجد . ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة لحظة قصيرة تهدأ لها
نفسى الثائرة وتستقر لها خواطرى المضطربة ، ثم آوى إلى السرير
لأنام ، وبين لقاءك أو الكتابة إليك ، لما ترددت فى أن أرجى لقاءك
والكتابة إليك إلى غد حين يشرق النهار وتملك النفس صوابها كله
وأمنها كله ، ويفكر العقل فى غير فتور ولا قلق ولا اضطراب . ما أظن
أنك سترضى عن هذا الكتاب ، فليس فيه شيء يرضيك ، وليس
فيه شيء يرضينى . وما كتبت إليك لأرضيك ولا لأرضى نفسى ،
ولنما كتبت إليك انتظاراً لمطلع الشمس .

ما أسرع ما تتغير نفس الإنسان ! بل ما أسرع ما تغيرت
نفسى ! فصدقنى أنى أنكرها أشد الإنكار ، ولا أكاد أصدق أن
هذه النفس التى كانت هائمة بحميدة . محزونة بل جزعة لفراقها ،
نادمة أشنع الندم وأبشعه على ما قدمت إليها من مساءة واقترفت فى
ذاتها من إثم — لا أكاد أصدق أن هذه النفس التى لم تكن تذوق
النوم إلا غراراً « مثل حسو الطير ماء الثماد » كما يقول شاعرك القديم ،
قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقها ، ومحيت منها أو

لعل من
ما غلب
ن الإله
بفتح
صوت
أنك
لى وجه
ما لك
ة ؟ قل
وقل
أن أش
، ولكن
به زجاجة
الباب
الشراب
ن ما رأيت
ب دفء
دعنى لمر
وجهه
ع برود

كادت تمحى صورة حميدة قائمة في غرفتنا تلك تنهل دموعها الصامته .
لقد كانت هذه الصورة تؤرقني الليل ، وتنغصص عليّ النهار ، وبملاً
سنوحها لي قلبي فرقاً وذعراً . فأنا الآن أنتظرها فلا تسنح لي ، وأدعوها
فلا تستجيب لي ، وألح في الدعاء وفي الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجمة ،
وكأنني أستحضر روحاً من أرواح الموتى . وهي لا تثبت بعد أن أجهده
نفسى في دعائها واستحضارها ، وإنما تمر بي مراراً سريعاً كأنها الطيف .
كيف انتقلت من طور إلى طور ؛ وكيف تغيرت من حال إلى
حال ! أكنت خيراً فأصبحت شريراً أم كنت شريراً أتكلف الخير ،
فلما بلغت هذا البلد ألقيت عن نفسي أعباء التكلف وأثقاله وظهرت
لنفسى كما أنا ، لا متحفظاً ولا منافقاً ؟ أم ماذا ؟ إني لفي حيرة
لا أعرف لها حداً ، ولكنى على ذلك كله راض عن نفسى بعض
الرضا ، بل كل الرضا . أترى أنى أسأت حين قطعت ما بينى وبين
حميدة من الأسباب ؟ هبى لم أفعل ، أفكان ما بينى وبين حميدة من
الصلة يعصمنى من الشر الذى أنا مدفوع إليه ، أم كنت أدفع إلى
الشر دفعاً وأقترب الإثم اقترافاً لا أحفل بحميدة ولا بحبها ولا بهذا
العهد المؤكد الذى قطعته لها بالوفاء ؟ فأنا مدفوع إلى الشر ما فى
ذلك شك ، وأنا عاجز عن المقاومة ، وأنا أسأل نفسى دون أن ألح
عليها فى السؤال : أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية مأكرة قد
دفعتنى إلى ما وراء البحر لألقى فى هذه الأرض الغريبة كيداً
يدبر وأمرأ يراد ، ولا يكون نهياً لشرططين الإثم والغواية والفساد ؟ أنا

ألقى على نفسه هذا السؤال منذ رأيت هذه الفتاة ففتنت بها ،
ولكنى أكره أن أطيل التفكير فيه مخافة أن يثوب إلى الرشد وأن أرد
إلى الصواب من أمرى ، وأن أثبت ما أنا مقدم عليه . ولست أريد
أن أثبت ما أنا مقدم عليه الآن ، وإنما أريد أن أثبت الشر إن كان
هناك شر بعد أن أتورط فيه . لماذا ؟ لست أدري . ولكنى لست
أستطيع أن أقف ولا أن أتأخر ، إنما أنا شئ قد دفعت به قوة عنيفة من
قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح لا يستطيع أن يمسك نفسه ولن
يستطيع أن يمسك نفسه ، حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض
السهلة المستوية . أكنيت ملاحاً فى طلب البعثة رغبة فى العلم الذى
كنت أزينه لنفسى ، أم رغبة فى هذه الأبواب من الفتنة التى لم أكن
أستطيع أن أستفتحها فى مصر ، والتى لست أحتاج أن أستفتحها فى
فرنسا لأنها تفتح لى وحدها ؟

ماذا أقول أيها الصديق ! أترانى جنت أم ترانى سكرت ؟ كلا !
لست مجنوناً ولا سكران . وهاتان الزجارتان لم أمسسهما ، وإنى لأثبت
كل ما حوى ، وإنى لأعرف أنى أكتب إليك ، وإنى لأستطيع
أن أثبتك من أمرنا بما لا يحسن المجانين أن يثبتوا به . ولست مجنوناً
ولا سكران ، ولكنى عاقل محكم العقل واضح الرأى صافى الذهن .
أنظر فى المرأة فأرى نفسى منكرة بشعة ، وأخجل منها حين أنظر
إليها أكثر من خجلى منك حين أكتب إليك . نعم لست مجنوناً
ولا سكران ، ولكنى رجل يزدري نفسه أشد الازدراء ويمقتها أبشع

سأنته
ولاً
وأدعها
واحدة
أأجدها
لطيف
حال إلى
الخير
وظهرت
فى حيرة
أبعض
، وبين
يأخذ من
نفع إلى
لا يهمل
ما فى
أن الع
كرة قد
كيداً
أنا

المقت . وكيف تريدني على ألا أزدري نفسي وأنا لا أكاد أرى خادماً
مبتذلة تحمل إلى الطعام وتبسم لي وتتحدث إلى ، كما تحمل الطعام
لعشرات من أمثالي وتبسم لهم وتتحدث إليهم ، بالصوت نفسه وباللهجة
نفسها وبالدعابة نفسها ، لا أكاد أراها مع هذا كله حتى يحن بها
جنوني ويفتن بها قلبي ، وأرجى من أجلها الرحلة إلى باريس ، وأقضى
من أجلها الليل مسهداً أرقاً ، أستعين على انتظارها وعلى انتظار الصباح
بالكتابة والشراب !

لست مجنوناً ولا سكران ، بل لست أدري من أنا ولا ما عسى
أن أكون . لقد زعمت لك منذ حين أني كنت خماراً قبل أن أعبر
البحر فردتني هذه الفتاة إنساناً . فصدقني ! إنني لا أرى نفسي إنساناً !
ولا أعرف من أي نوع أنا بين الأنواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان .
إلى اللقاء أيها الصديق ! لا أحب أن أطيل في هذا الحديث
فإنني أخشى أن أخرج من طوري ، وأن أدفع إلى هذا الجنون الذي
أنكره وأبرأ منه .

إلى اللقاء ! لو أني عقلت وأحكمت أمري لانصرفت عنك إلى
هذا السرير الذي يدعوني إلى الراحة والنوم . ولكنني أعلم حق العلم أني
لن أستريح ولن أنام ، وأنني سأقضي الليل إن أويت إلى فراشي لعبة
لصورتين مختلفتين أشد الاختلاف ، إحداهما تخيفني حتى تبلغ بي
أقصى الخوف ، والأخرى تغريني حتى تنتهي بي إلى غاية الإغراء .
إحداهما حميدة البائسة ، والأخرى هذه الفتاة الخادم التي لا أعرف من

أمرها شيئاً إلا أنها جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح ، تحمل
الطعام وتبسم للأضياف . كلا ! كلا ! إني لأكذب عليك وأكذب
على نفسي . إني لأعرف من أمرها أكثر من هذا قليلاً : إن اسمها «فرنند» .
إلى اللقاء أيها الصديق ! لأشغلن نفسي عنك وعن هاتين الصورتين
بمصارعة هاتين الزجاجتين ، فلما أن تصرعاني فأستريح حتى توقظني
هذه الفتاة من الغد ، ولما أن أضرعهما فليس الجرس ببعيد . وما على
إذا أزعجت الخادم وكلفته أن يحمل إلى زجاجة أو زجاجتين !

إلى اللقاء !

أكتوبر في

ليست الحياة لعباً أيها الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها
لعباً . والجنون مباح على أن يكون قليلاً ، فإن طال فصير صاحبه إلى
مستشفى المجانين . وقد أشفقت أن يطول جنوني ، وقد أشفقت أن أدفع
إلى هذا المستشفى ، ولكنني أفقت بعد لآي ورشدة بعد غي ، وكان
أول ما لقينته في فرنسا شراً ، ولكنني أرجو ألا أستقبل فيها منذ اليوم
إلا خيراً متصلاً .

أنا أكتب إليك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة المستقر .
لا إقامة الزائر الملم . فستبدأ الحياة الجامعية بعد أيام ، ولا بد من
الانتساب إلى الجامعة والاختلاف إلى الدروس ، وإلا رددت إلى
القاهرة أشنع رد . وكيف ألقاك ! وكيف ألقى أصحابنا ! وكيف ألقى
أهلي وأصحابي في الريف ! وماذا أقول للناس ! وماذا أقول لصورة

حميدة إن عرضت لى فسألتنى ماذا أفدت من المكث فى باريس أو فى
غير باريس من مدن فرنسا ! وماذا أقول لصورة حميدة إن سألتنى
ماذا جنيت من هذا الطلاق الذى أقدمت عليه فى غير أناة ولا رشد
ولا تفكير !

نعم ! لابد من الانتساب إلى الجامعة والاختلاف إلى الدروس
وإرضاء الأساتذة الذين لا أعرفهم ، وإرضاء مراقب البعثة الذى أعرفه
وأحبه أصدق الحب وأقواه ، وإرضاء نفسى التى لا أدرى أأوفى إلى
إرضائها أم أعجز عنه ! فإنها بعيدة الطمع شديدة السخط على منذ
عبرت البحر .

لابد من الانتساب إلى الجامعة ، والاختلاف إلى الدروس ،
وإرضاء مراقب البعثة لأظفر بثقته واحترامه ! فأنا فى حاجة شديدة
إليهما ، وأنا لم أظفر منه إلى الآن إلا بالعطف والبر والإشفاق بعد السخط
الذى ليس فوقه سخط والغضب الذى لا يشبهه غضب . فقد كلفته من
المشقة ما لم يكلفه أحد من قبلى ، وقد حملته من الجهد ما لم أحمله أحداً
من قبله . فلم تكن هذه الأسابيع التى أنفقتها فى فرنسا ناعمة ولا راضية ، ولم
يكن يملؤها الهدوء والاطمئنان ، وإنما كانت أسابيع يؤس وجنون وشقاء
ومرض أيضاً . واكتسم على ! فإن أحداً من المصريين فى باريس لم
يعرف مما أصابنى شيئاً ، وأنت أول من يعرف قليلاً من أمرى بعد
مراقب البعثة ، هذا الصديق الفرنسى الذى يعرف من أمرى كل شئ ،
ويكتم من أمرى كل شئ ، ويعنى بأمرى عناية الأخ المحب الرفيق ،

والذى استطاع أن يتقلنى من فساد لا حد له إلى صلاح أرجو ألا يكون له حد .

أنا أكتب لك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة الساكن المستقر لا إقامة الزائر الملم . فقد زرت باريس فى الصيف ، ولكنى لم أقم فيها إلا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة وعرفته بنفسى ، وقلت له وسمعت منه ، ثم استأذنته فى أن أترك باريس حتى ينقضى الصيف . ولم ير بذلك بأساً ، ولعله رأى فيه خيراً ! فقد كان يحب ألا ألقى المصريين لأول عهدى بفرنسا ليصح تمرينى على اللغة ويحسن حديثى إلى أهلها وفهمى عنهم . وقد زعمت له أنى أحب أن أعود إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لأن جوه قريب من جو مصر ، فلم ينكر ذلك ولم ير به بأساً ، ولكنه نهانى عن مرسيليا وزيين لى مدينة قريبة منها على ساحل البحر أيضاً هى مدينة « كان » . فأظهرت الطاعة له والقبول لرأيه . والغريب أنه منحنى أجر السفر على حساب الجامعة للذهاب والإياب . وتركته وتركت باريس ؛ ولكنى لم أذهب إلى « كان » ولم أنزل فى الفندق الذى سماه لى من فنادقها إلا بعد أن مررت بمرسيليا . . وأقمت فى فندق جنيف أياماً . . واستوثقت من أنى لن أكون وحيداً فى « كان » .

ولم لا ؟ إن لفرنند وإن كانت خادماً الحق فى أن تستريح وتصطاف كما تستريح السادة ويصطافون . وما يمنعها أن تستريح وتصطاف أسبوعين حيث أستريح أنا وأصطاف ! !

من أول
، سألنى
ولا ردد

البرون
بى أعرفه
أولئك إلى
على مند

لبرون
ة شديدة
لد السخط
كلفته من
حمله أهدأ
ضحية، ولم
ون وشقاء

باريس لم
مرى بعد
، شىء
الرفيق ،

وكذلك لم أسافر من مرسيليا إلا بعد أن قدّمته بين يدي إلى « كان » في قطار الصباح ، ولحقت بها في قطار من قطارات المساء ، ولا تسل بعد ذلك عن هذه الأيام الحلوّة المرة ، المشرقة المظلمة ، التي قضيتها في هذه المدينة مع فرنند في أول الأمر ، ثم وحيداً بعد أن آن لفرنند أن تعود . ولا تسل عما جنته على هذه الوحدة من السيئات والآثام ! فأنت أكرم على وأحب إلى من أن أقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وأنت لا تقرأ كتبي بنفسك ، وإنما يقرأها عليك غلامك الأسود الصغير . وحسبك أن تعلم أني رجعت إلى باريس متعباً مكثراً . أستغفر الله ! بل مريضاً مشرفاً على أعظم الخطر وأشدّه نكراً . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وإن له عندي ليداً ما أعرف أني أستطيع مكافأتها إلا بالجد الذي يرضيه . ولأبلغن من هذا الجهد ما أريد وأكثر مما أريد .

لا تغضب إن انقطعت عنك كتبي ! فما أظن أني سأفرغ للكتابة إليك قبل أن يمضي وقت طويل .

١٤

وكان طويلاً حقاً هذا الوقت الذي انقطعت عني فيه رسائل صاحبي . وقد كنت أقدر أنه سيمرّكني سهراً أو شهرين . وكنت أظن أنه لن يستطيع أن يبلغ هذا الأمد دون أن تثور به خواطره هذه الغريبة فترده

إلى يلتمس عندي شيئاً من الأمن وراحة النفس واستقرار الضمير .
ولكن الأسابيع مضت في إثر الأسابيع ، وانقضت الأشهر في أعقاب
الأشهر ، دون أن أتلقى من صاحبي كتاباً أو شيئاً يشبه الكتاب .
والغريب أنه لم يُعرض عن الكتابة إلى وحدي ، وإنما انقطعت عن
أصحابنا هذه الجمل القصار التي كان يرسلها إليهم على بطاقات البريد ،
وانقطعت أخباره حتى عن أهله في الريف . فكثيراً ما كتب إلى أبوه
الشيخ يسألني أوصل إلى من أبناء ابنه شيء ، فكنت أرد عليه بأن
ابنه في باريس على خير حال ، يختلف إلى السربون ، ويرضى
أساتذته ، ويرضى مراقب البعثة ، ويرضى الجامعة المصرية عنه أحسن
الرضا . ولم أكن أعلمه بالأمانى ولا أقول له غير الحق ، وإنما كنت
أسأل عن صاحبي في إدارة الجامعة ، وأعرف منها أنه بخير وأنه يجد
في الدرس جداً غير مألوف ، ويظهر من التفوق ما لم يألّفه الأساتذة
الفرنسيون من الطلاب المصريين . ولم أكن أجد في هذا غرابة !
فقد كنت أعرف من ذكاء صاحبي الشاذ واستعداده النادر ما لم
يكن يعرف غيري من الذين اتصلوا به وخالطوه . وكانت هذه الأنباء
تكفيني وترضيّني ، وتقوم له بالعذر عندي عن انقطاع رسائله عني ،
وتملأ نفسي حباً له وإعجاباً به وشوقاً إليه وحرصاً على أن يتاح لي
ما أتيج له من الحظ فأعبر البحر كما عبره . ولكنني كنت أقسم لن
بلغت مرسيليا لأجتنب المقام فيها إلا ريثما يحملني القطار إلى باريس .
وكثيراً ما كنت أسخر من نفسي حين كان يخطر لي هذا الخاطر .

على إلى
المساء ،
التي ،
أن آل
لسبب
فصلها
عليك
باريس
وأشده
ن إلى
ما أريد
للكتابة
صاحبي
أنه لن
تفرده

لماذا أخاف من مرسيليا ! وماذا أخاف من فندق جنيف ! وماذا
أخاف من فرزند وأمثال فرزند ! وما أنا وهذه الفتن التي لم تصل الأيام
بينى وبينها سبباً ، ولم تجعل الأيام لها على نفسى سبيلاً ؛ وما أنا
وهذه الفتن وقد كنت غارقاً في الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان
الأزهر الذي أخفقت فيه إخفاقاً بشعاً ، وأتأهب لامتحان الجامعة الذي
نجحت فيه نجاحاً حسناً ! ثم ما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً في
أدب أبي العلاء وفلسفته ، متمثلاً لهذه الفلسفة ، متكلفاً لتشاؤم
شيخ المعرة ! وكثيراً ما كنت أخدع نفسى وأغرها ، وأزعم لها أنى
سأذهب إلى باريس كما ذهب أبو العلاء إلى بغداد . ومن يدرى !
لعلى أعود من باريس ، كما عاد أبو العلاء من بغداد ، فألزم قرية
من القرى وأقيم فيها لا أريم . ولم أكن في حاجة إلى أن أطلب إلى
أهل هذه القرية كما طلب أبو العلاء إلى أهل المعرة ألا يكلفوه أن
ينفر معهم من القرية إذا أغار عليها الروم ! فلم أكن أخشى أن يغير
الروم على قريتي في أدنى الصعيد أو أقصاه . وكذلك كنت مشغولاً
بجد الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التي تعرض لها صاحبي ،
فأفسدت عليه خلقه ودينه وصحته ، وكادت تنتهي به إلى الموت .
ثم ينقضى العام ويتقدم الصيف ، وإذا الأنباء تأتي من باريس
بأن صاحبي قد فعل الأعاجيب ، فأتم في عام واحد ما لا يتمه غيره
في أعوام ، وتقدم إلى امتحان ذى بال ففاز فيه وفاز بتهنئة الأساتذة
أيضاً . وهو مع ذلك لا يكتب إلى ولا يفكر في . وقد كنت أظن أن

فوزه في الامتحان وفراغه للراحة سيردانه إلى صديقه لحظات قصاراً أو طويلاً .
ولكن الصيف كله ينقضي وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه
بشيء . حتى إذا كان شهر أكتوبر تلقيت منه هذه الأسطر :

أكتوبر في

إنك تنتظر أن أكتب إليك لأصف لك حياتي في باريس .
وما كان أحب إليّ أن أفعل ! ولكن حياة باريس لا توصف في
الكتب والرسائل ، ولا سبيل لك إلى أن تعرفها مقارنة إلا إذا حييتها .
على أنني أحب أن أصور لك شعوري في باريس تصويراً مقارباً غير
دقيق . ولن يكون هذا التصوير بكلام أكتبه إليك ، فالكلام كما
قلت لا يغني في باريس شيئاً . ولكن اذهب إلى الأهرام ، فما أظن
أنك ذهبت إليها قط ، وانفذ إلى أعماق الهرم الكبير ، فستضيق فيه
بالحياة وستضيق بك الحياة ، وستحس اختناقاً وستصيب جسمك
عرقاً ، وسيخيل إليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم ، وأنه يكاد
يهلكك ، ثم اخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف ،
واعلم بعد ذلك أن الحياة في مصر هي الحياة في أعماق الهرم ، وأن
الحياة في باريس هي الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق . واجتهد
في أن تتم ما بقي لك من درس في القاهرة ، وتؤدي ما بقي لك من امتحان .
واجتهد أيضاً في أن تستبق رضا الذين يحبونك ويشجعونك ويريدون
أن تتم درسك في باريس . وأسرع إلى باريس متى استطعت فإني
أنتظرك فيها ، وما أكثر ما سيكون بينك وبينى من الأحاديث !

وتنقضى السنة الدراسية كلها لا يصل إلى فيها من صاحبي كتاب ولا نبأ . وإنما أسأل عنه في الجامعة كما كنت أسأل في العام الماضي ، فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف في العام الماضي أنه مقبل على الدرس في نشاط وتفوق ، وقد أخذ يدرس اللاتينية بعد أن أحسن الفرنسية إحساناً لا بأس به . وأنا أكتب إلى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأتحدث بها إلى أصحابنا ، حتى أصبح اسمه بيننا رمزاً للجد في العمل وللتوفيق في الحياة .

وقد تهيأت لي أسباب الرحلة إلى فرنسا على خير ما كنت أحب . وإلى لأستعد للرحيل متنقلاً لذلك بين القاهرة والصعيد ، وإذا الحرب الكبرى تعلن ، وإذا كل شيء يتغير في حياة الأفراد والجماعات ، وإذا رحلتى تؤجل ، وإذا أنا مضطر إلى أن أقيم في القاهرة بائساً محزوناً سيئ الحظ خائب الأمل . وتأق الأنباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين ، وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دنت منها جيوش العدو . ولكني أتلقى من صاحبي هذا الكتاب :

أغسطس في

لقد زلزلت الأرض زلزالها ، واضطرب فيها كل شيء وكل إنسان

أيها الصديق ، وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئاً ، فانت
تقرأ من ذلك في الصحف المصرية والأجنبية ما لا أستطيع أن أبلغه
ولا أن أقاربه . وإنما أكتب إليك محزوناً لأن الظروف لم تنهي لك
الرحلة التي كنت ترجوها وتعقد بها الآمال ، والتي كنت أرجوها وأنتظر
منها خيراً كثيراً . فليس لي بين المصريين المقيمين في باريس صديق
آنس إليه إن سرتني الحياة ، أو أستعين به إن ساءتني . وإنما نحن
قوم متخاذلون متنافسون ، يبغض بعضنا بعضاً ، ويمكر بعضنا
ببعض ، ويكيد بعضنا لبعض في كل شيء ولسبب ولغير سبب .
قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه ، فجعل كل واحد منا من
أمر أصحابه كل شيء إلا هذه الأمور الظاهرة التي ليس إلى جهلها
من سبيل . فنحن نعرف من يختلف إلى السوربون في مواظبة ، ومن
يزورها لماماً ، ومن ينفق يومه في البيت وليله في القهوة . ونحن نعرف
من يعيث مع هذه الفتاة من بنات الغنى ، ومن يدور حول هذه الفتاة
من طالبات العلم . ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها ،
ونعرف من يلهيه تتبع الطالبات في غير نفع عن الدرس والتحصيل .
ونحن نعرف من يكتب إلى أهله بالأكاذيب ويخدعهم بالأمانى ،
ويستخلص منهم المال بالحق والباطل ، وينفق حياته كلها في اللهو
واللعب . ونحن إذا لقي بعضنا بعضاً لم نتحدث إلا في هذا ، ولم
نستعن بأنفسنا إلا بهذا . وأظنك تعلم أن ليس لي في شيء من هذا
أرب ولا لذة . فأنا وحيد بين المصريين في باريس وإن لم أكن وحيداً

بين الفرنسيين ؛ فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ويحبوننى وأمن لهم ويأمنون لى . ولكنى ألاحظ أن لى نفسين : نفساً تأنس إلى الفرنسيين ، وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجلد واللهو ، ونفساً أخرى مشوقة أبداً ، ملتاعة أبداً ، تحب أن تسمع صوتاً مصرياً صادقاً ، وأن تأمن إلى قلب مصرى صادق . على أنى قد حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعاً . فأما أولئك فقد فروا بأنفسهم من الموت الذى يقال إنه قد يغزو باريس . وأما هؤلاء فقد دفعوا بأنفسهم دفعاً إلى لقاء الموت ليردوه عن باريس . وقد أنفت أن أفر مع أولئك ، وضعفت أن أنفر مع هؤلاء ، وآثرت موقفاً لا أحده لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار . وما أرى إلا أنى سأخرج من هذا الموقف كارهاً إن استطاع الموت أن يقتحم ما أعد له الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخالدة ؛ فما أملك حياتى حين يُقدم الموت على باريس . على أنى أجد فى هذه المدينة الخالية التى فر الناس منها ذعراً أو نفر الناس منها حفاظاً ونجدة ، شيئاً من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وإنما أستطيع أن أقول إنه يملك على نفسى ويفعم قلبى إفعاماً ، ويحبب إلى هذه الأرض كما لم أحب أرضاً قط .

نعم ! أجد فى مقامى فى هذه المدينة الخالية لذة لا أدرى كيف أصورها ، وفخراً لا أعرف كيف أصفه . ومع أنى لم أنفر مع الناس فقد يخيل إلى أنى شجاع ؛ فليس جباناً ولا ضعيف القلب هذا الذى لم يفر مع من فر ، ولم يعد إلى مصر فيمن عاد من الطلاب ، ولم

يغير من أمره شيئاً مع أن كل شيء من حوله قد تغير ، وما زال يتغير ،
ولأنما ظل في مكانه هادئ النفس مطمئن القلب ينتظر الأحداث
والخطوب لا خائفاً ولا وجلاً ولا مدعوراً .

ولقد أخذت على نفسي عهداً ألا أبرح باريس مهما تكن
الظروف . وستعلم أنني سأفي بهذا العهد مهما يكلفني ذلك وإن انتهى
بي إلى الموت ، وأي شيء يكون الموت في سبيل باريس ! لقد أبيت
أن أكتب إليك في وصفها وفي وصف الحياة فيها ؛ لأن ذلك لم يكن
ميسوراً ، ولأنني كنت أرجو أن تقدم على باريس فأظهرك على ما
تستطيع أن تظهر عليه من أمرها . وقد تأخر قدومك ، وكنت أحب أن
أعُلك بالحديث عن باريس ، ولكنني عاجز حتى عن هذا ، مشغول
بالحديث إلى نفسي عن الحديث إليك . فكم لي من ساعات أخلو
فيها إلى نفسي حتى تنقطع الأسباب بيني وبين كل شيء ، وبينني
وبين كل إنسان ؛ والناس مع ذلك حولي يذهبون ويحيثون ويمرّجون
بعضهم في بعض . فأنا لا أخلو إلى نفسي هذه الخلوة في بيتي وإنما
أخلو إلى نفسي في الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس
ويزدحمون . أخلو إلى نفسي أمام تمثال من هذه التماثيل ، أو عمارة
من هذه العمارات ، أو معهد من هذه المعاهد التي يستقر فيها الجدل
خصباً خافلاً بالنفع والأمل ، لا لأهل باريس ، ولا لأهل فرنسا ،
بل للناس جميعاً ، ومنهم هؤلاء العدو الذين يقدمون على باريس
ومعهم الموت يريدون أن يصبوه عليها صباً .

مهم وخطير
تألم إلى الموت
الخطوب لا
تجرب أن
صادق
أولئك الناس
أما هؤلاء
من أولئك
وت موافقاً
لا إلى ما
أعده له
حين يعلم
التي لم
ر الزمان
سعي و
لا أدري
لم أفرغ
القلب هذا
الطلاب

نعم ! وأخلو إلى نفسى أمام معهد من معاهد اللهو ، هذه التى تستقر فيها الدعابة فتبعث الفرح فى القلوب جميعاً ، وتبعث الابتسام على الثغور جميعاً ، وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة إلى الذين زهدوا فى الحياة .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء التى أراها كنوزاً للإنسانية قد حوت خير ما عند الإنسانية من فن وأدب ، ومن فلسفة وعلم ، ومن عمل وأمل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأفكر فى أن قوماً يزحفون عليها يريدون بها السوء ، ولا يكرهون ، ولعلهم يحبون أن يحرقوها محقاً ، ويسحقوها سحقاً ، ليغضوا من أمر باريس ، وليغضوا من أمر فرنسا ، دون أن يحفلوا بأنهم إن فعلوا فسيغضون من أمر الحضارة كلها ، وسيعلمون فى القرن المئتين العشرين كما أعلن آباؤهم فى أول التاريخ المسيحى أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد أذن بزوال ، وأن الإنسانية قد آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف ، وأن تعود إلى هذه الراحة المجيدة التى يملؤها الدل والعقم والهوان .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء ، وأراها قائمة باسمه نضرة يملؤها الفخر والتهى ويزدهيها الأمن ، ثم أراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوساً ونضرتها ذبولاً وكبرياؤها ذلاً وخنوعاً . وإذا أنا مدفوع إليها متصل بها ، فأنا فيها أنعم لأنها ناعمة ، وأبسم لأنها باسمه ، وأبتئس لأنها مبتئسة ، ويدركنى الموت لأنه أدركها .

حرام على فراق باريس حتى أصير إلى مثل ما نصير إليه ،
وأخرج معها من الأهوال بما تخرج به منها . ولتغضب الجامعة إن
شاءت أن تغضب ، ولترض الجامعة إن أحببت أن ترضى ؛ فقد
دعت طلابها إلى مصر فعادوا سراعاً . وأكبر الظن أنها ستردهم إلى
فرنسا بعد أن تستقر الأمور شيئاً ، ولكنها ستحول بينهم وبين باريس
لأن باريس قريبة من الخطر معرضة له دائماً . وسيعود هؤلاء الطلاب
وقد تقدم أنت معهم ، وسيتفرقون من أرض فرنسا في حيث يستقر
الآمن والسلم ، وفي حيث لا تصل إليكم يد العدو ولا تبلغكم قذائفه .
أما أنا فقيم هنا لا أريم ، منتظر هنا مع المنتظرين . ومن يدري !
لعل أخرج من هذا الانتظار إلى العمل . فإني ينبغي للرجل الكريم
ذو المروءة أن يعيش مع الناس ضيفاً عليهم مستمتعاً بما يمنحونه من
الآمن آخذاً بأوفر حظه مما يبيعون له من لذة العقل والقلب والجسم ،
حتى إذا أملت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الأحداث ، فرّ عنهم
مسرعاً لا يلوى على شيء ، أو أقام فيهم جباناً أثراً خانعاً لا ينبغي
إلا أن يعيش .

نعم ! ما ينبغي للرجل الكريم ذي المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة .
وما كنت أحب للجامعة أن تلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم
إلى هذه السيرة ، وإنما كنت أحب منها شيئاً آخر . وأنا أعلم أن
الجامعة أمينة على حياة طلابها مسئولة إلى حد ما أمام أهل هؤلاء
الطلاب ، ولكني أعلم أيضاً أن الجامعة لا تجير من الموت ، وأن

أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجعوا عليها إن ألت بطالب من طلابها
علة مهلكة أو عدت عليه عادية لا مرد لها . وهل الحرب إلا بعض
هذه العلل . والعوادي ! وماذا تقدم الجامعة إلى الناس حين تقدم
إليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر ، وآثروا
الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة . وعرفان
الجميل ، حين كان هذا كله يريد لهم على أن يسعوا إلى رد الخطر
كما سعى الفرنسيون ، أو يشبثوا لانتظار الخطر كما ثبت أنا ! إنما
تقدم إليهم أساتذة قد فروا من الخير إلى الشر ، ومن الإيثار إلى
الأثرة ومن الكرم والنبيل إلى الذلة والهوان .

وأنا أعلم أنك أيها الصديق تنكر هذا مني ، وتراه جنوناً أو تراه
إسرافاً . ولكن ما رأيك في أنني أرى هذا طبيعياً ، وأصدر عنه حين
أفكر وحين أعمل ، وفي أنني قد رفضت العودة حين عاد الطلاب
الجامعيون ، ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين
إلى الأقاليم النائية ، وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له
جهداً . وسينقطع عني من غير شك راتب الجامعة ، ولن أطلب
العون من أهلي ، وما أحب أن تنبهم من ذلك بشيء . وقد أتعرض
للضرر ، وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأساً ، فإن معي ملايين
سيتعرضون لهذا الضرر ، وسيدوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد
وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على أنني لا أريد أن أغلو
ولا أصور لك نفسي في صورة البطل . فلئن نجت باريس من هذا

الشر المحقق ، لأعودن إلى ما أنا فيه من حياة هادئة وادعة . ولئن أملت بها الكارثة لأكونن واحداً من هذه الملايين التي تشقى ، ولكنها لا تصور شقاءها في الكتب ولا تتحدث به إلى الأصدقاء من وراء البحر ، وإنما تلقاه ثابتة له مطمئنة إليه ، حتى تنفرج عنها الكربة ، وتزول عنها الغمة ، وتنجاب عنها ظلمة الليل . ولعل أظهر ما ترك الحرب في نفوسنا من الآثار أنها تهون عليها الحياة ، وتزيل عنها هذه الأغشية التي نسجت الحضارة لها نسجاً من الأثرة وحب اللذة والنهالك عليها ، والطموح إلى الترف ، والحرص على الأمن والاستمتاع بما يبيع من نعيم ، فكل هذا شيء مصنوع متكلف أنتجته الحضارة إنتاجاً . وليس هو في طبيعة الحياة ، وإنما طبيعة الحياة أيسر من هذا وأدنى إلى السذاجة . إنما هي حركة ونشاط يعقبهما سكون وخمود . إنما هي هذا الذي نراه في غيرنا من الحيوان الذي يتبع غرائزه أخذاً من نشاطه بأعظم حظ يستطيعه ، حتى إذا أملت به الكارثة أو تلقاه الموت لم ينظم شعراً ولم يكتب نثراً . وإنما انتظر الموت مدعناً له ، ودخل في الفناء كما خرج منه ، لم يرد الدخول فيه كما لم يرد الخروج منه .

نعم ! هذا أظهر ما ترك الحرب في نفوسنا من الآثار . فنحن نتبع غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا . نحن شجعان دون أن يكون لنا فضل في الشجاعة . ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل في الإثارة . ونحن جبناء وأثرون أيضاً دون أن يكون علينا في الجبن والأثرة لوم .

إنما نُقدِّم أو نُحجِّم لأننا ندفع إلى الإقدام أو نرد إلى الإحجام ،
لا نرى من هذا ولا ذاك بدءاً . ذهبت بالقياس إلينا كل فلسفة ،
وانحلت بالقياس إلينا كل قاعدة ، وأرسلت نفوسنا على سجيبتها
لإرسالها . فنحن ننهب الفرص حين نظفر بها ، ونستمتع باللذة إلى أبعد
غاية الاستمتاع حين تتاح لنا ، لا نحاسب أنفسنا ولا نسألها . وفيه
الحساب والسؤال ونحن لا نفكر في العاقبة لأن فكرة العاقبة قد محيت
من نفوسنا محوآً ؛ وما التفكير في العاقبة وما السؤال عنها ، ونحن نراها
ساعية إلينا مشرقة علينا ، قد زلزلت الأرض من حولنا زلزالاً ؛ أليست
هي في هذا الموت الذي يسعى إلى باريس ويوشك أن يبلغها غداً
أو بعد غد !

لست أدري إلى أي عاقبة تنتهي هذه الحرب . ولست أدري
لمن سينتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة . ولكن الذي لا أشك
فيه هو أن الناس سيقتضون أيام الحرب والأعوام التي تليها متأثرين
بالغرائز أكثر مما يتأثرون بأي شيء آخر ، مهدرين لما عرفوا من قيم
الأشياء إهداراً ، مزدريين لما ألفوا من المثل العليا . وما أرى إلا أنهم
سينفقون دهرآ متمردين على العقل والخلق ، واجدين في هذا التمرد
أقصى اللذة وأقصى الألم .

لست أدري أتفهم عني ! فقد ألفت الظروف بينك وبينني
حجباً كثافاً صفاقاً ، لعل الكلام لا ينفذ منها ، ولعل العقول لا تتصل
من دونها . أنت آمن وأنا خائف . أنت هادئ وأنا مضطرب . أنت

لا تخشى الموت وأنا أراه يسرع إلى ما حولي ومن حولي في غير ريث ولا أناة . كم أحب لك أن تعبر البحر لتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا الميدان ، أو ألقوا به ثم ردوا عنه . فهما تكن المدينة التي سترسل إليها بعد أشهر فستكون فيها قريباً من المئات والآلاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزعون توزيعاً على ما أقيم في فرنسا من المستشفيات ، وستسمع من هؤلاء أو من الذين يتصلون بهؤلاء أبناء الموت وأحاديث الحرب ، وستفهم أنها خليقة أن تغير في الحياة رأى الأحياء . أين أنا ؟ وماذا كنت أريد أن أقول لك حين بدأت هذا الكتاب ؟ . لقد أنسيت مكاني وأنسيت بدء الحديث . وهأنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذي أنا فيه والذي أكتب إليك منه . إنها هذه القهوة التي يألفها الأدباء في حي مونبرناس ، والتي تعودت أن أختلف إليها ، وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم ، لأراهم حين يقبلون وحين ينصرفون ، ولأسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة الحلوة ، وهذه الفكاهة ذات الأجنحة ، وحين يتناشدون الشعر ، ويتبادلون الرأي فيه حول أقذاح الأبننت إذا دنا الظهر أو أقبل الليل ، وحول كؤوس الكونياك وأقذاح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء . إنني لأعرف نفسي في هذه القهوة التي كانت وقفاً أو كالوقوف على أدباء الحى اللاتينى . ولكنى أختلف إليها منذ أيام فلا أرى فيها خلق الأدباء ولا أنديتهم ، وإنما هي مزدحة دائماً تكتظ بالمقبلين عليها من كل صوب ، قد

اختلطوا أشد الاختلاط ، وتباينت طبقاتهم أشد التباين . وهم يلمون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام ، إنما يلتقون ويفترقون ، ويصيبون بعض ما يحتاجون إليه من شراب بارد أو خار ، ثم يمضى كل منهم لوجهه . ومن يدري ! لعلهم لا يعودون إلى هذه القهوة أبداً . ومن يدري ! لعل الذين يلتقون فيها لا يلتقون بعد هذا اليوم أبداً . وباريس كلها في هذه الأيام تشبه هذه القهوة ، يلتقى فيها الناس سراعاً ويفترقون سراعاً . كلهم معجل ، وكلهم قلق ، وكلهم يستقبل الساعة التي هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التي تليها حساباً ، لأن حساب الساعات لم يبق في أيدي الناس وإنما صار إلى يد « أم قشعم » . ألسنم تزعمون أن أم قشعم هي الحرب ؟ تعال أيها الصديق فانظر إليها وإبل سلطانها على النفوس ، فسترى وستسمع وستحس أشياء لا صلة بينها وبين ما تقرأ في شعر زهير .

وداعاً أيها الصديق ! لقد ذكرت الآن فيم أقبلت إلى هذه القهوة . فهذه « إلين » تقبل على مبتسمة في هذه الأيام التي لا يفهم فيها معنى الابتسام ، وأنا أبسم لها . ولا تسلى عن إلين ، فالله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وما أحب أن أسوءك بجديث إلين ، فيكفى أن تعلم أن صديقك الذي كان جاداً كل الجدة ، منصرفاً إلى الدرس كل الانصراف ، قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الأسباب كلها بينه وبين حميدة وفرند . يكفى أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجدة وقطع الأسباب بينه وبين الدرس ، ووصل الأسباب

بينه وبين إلين . ولن أحدثك عنها ما دامت هذه الأسباب موصولة ،
فإذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فأنت تعلم أنى لا أحدثك
عن رضاي حين أرضى ، وإنما أحدثك عن شقائى حين أشقى ،
فتمنّى لى الشقاء إن حرصت على أن أتحدث إليك .

وداعاً أيها الصديق ! إن إلين تضيق بانصرافى عنها إليك .
ولئن مضيت فى هذا الحديث لتمزقن كتابى إليك تمزيقاً . فلا تنصرف
عنك إليها ، ولأستقبل معها حياة المساء فى باريس المضطربة . فن
يدرى عم يسفر لنا الصباح !

١٦

ديسمبر فى . . .

وكذلك عبرت البحر فى أيام الحرب وفى فصل الشتاء ، ولقيت من
عبوره هذا الشر العنيف الذى خلقتة لنفسك خلقاً ، وخيلته إليها تخيلاً
أيها الصديق . فما كانت سفينتك معرضة لخطر الغواصات : ولو عرفت
الجامعة أنكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم إلى فرنسا ؛ فهى حريصة
على حياتكم حرصاً شديداً . وما كانت سفينتك على صغرها وطول العهد
عليها معرضة للغرق ولا لأن تحطمها الأمواج : فلو كانت تعرض لشيء
من ذلك لما أذن لها بالعمل فى البحر . وإنما أنت رجل من أبناء الريف
لا تعرف المخاطرة ولا المغامرة ؛ فكل جديد عندك خطير ، وكل مشقة

١٦٧

يلين
بعض
جهه
الذين
هذه
إعاً
مقبل
اعان
تزعجون
المطامير
ويلين
نهوة
أفيا
مهاكم
عديت
لحد
وقطع
ديتلك
سباب

عندك مشرفة بك على التهلكة . وها أنت ذا قد نجوت من الغرق ، فلم
تسفلك غواصة ولم يطغ الموج على سفينتك . فانعم بهذه النجاة ، وانعم
بالوصول إلى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف إلى جامعة مونبلييه ،
وانعم بما قدر لك من أمن وهدوء ؛ فلن يبلغ الألمان مونبلييه . وأننى لم
أن يبلغوها وهم قد ردوا عن باريس كما علمت ردّاً عنيفاً ، وهم قد
اضطروا إلى هذه الحياة التى يحيونها فى الخنادق ينتظرون أن ينحصر
الشتاء ليستأنفوا الهجوم ، وينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحصر
الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف وليخرجهم من أرض الوطن لإخراجاً !
اهنا بهذا الأمن فى مونبلييه وإن كنت لا أفهم لم وجهتكم الجامعة
إليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمناً من مونبلييه بعد
أن ردّ الألمان عنها ردّاً وقد كسرت حدتهم وفلت عزائمهم ، فلن
يبلغوها بعد اليوم مهما تتح لهم القوة ومهما يواتهم الحظ . ولكنكم قوم
تحسنون الاحتياط وتغلون فيه وتتجنبون حتى مظنة الخطر . فلتنعموا
بما أتيح لكم من هذا الحذر الذى لن يغنى عنكم من الله شيئاً . ولكنى
أحب لك ألا تخدع نفسك بالأمانى ولا ترسلها مع الغرور ، ولا تخيل
إليها أنك تعيش فى فرنسا تلك التى عرفناها قبل الحرب ؛ فإن فرنسا
تلك ليست فى المدن ولا فى الأقاليم ولا فى باريس ، وإنما هى
فى ميدان القتال ، تواجه الموت وتبسم له بعد أن كانت من قبل تواجه
الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة شيوخ عجزوا عن
حمل السلاح إلى الحرب فأقاموا فى الجامعة يعلمون . وستختلف إلى

الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لا حظ لهم مما كان يملأ نفوس
الفرنسيين من فرح ومرح ونشاط . ستعيش في بيئة مظلمة مكفهرة ،
فيها أمل ولكنه بعيد ، وفيها خوف ولكنه قريب . فيها أمل في فوز فرنسا ،
وفيها خوف على أبناء فرنسا . وفيها يأس لا ذع يتردد بين ذلك الأمل وهذا
الخوف . والحياة في هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع ، ولكنك
لا تستطيع أن تبلوها كما ينبغي ؛ لأنك لم تر فرنسا الفرحة المبهجة الآمنة
لتقيس إليها فرنسا المحزونة المكتئبة الخائفة . افرغ إذا لعلمك ودرسك ،
وامنح أكثر وقتك للكتب ، وأجل معرفة فرنسا إلى حين ؛ فإنك لن
تعرفها حق المعرفة إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومتى تضع
الحرب أوزارها ؟ ..

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك إلى هذا الحد
فقد ذهبت فيما زعمت لي إلى فندق جنيف حين انتهيت إلى مرسيليا ،
وكنت تظن أنك ستلقى فيه فرنند . ويحك ! وهل تبقى فرنند في فندق
واحد كل هذا الأمد البعيد ؛ من يدري ! أين فرنند بعدما مضى من
الزمن ، وبعدها اضطربت شؤون فرنسا وشؤون الأرض كلها هذا
الاضطراب ، وماذا كنت تريد إلى فرنند ؟ وعم كنت تريد أن تسألها ؟
لقد أنبأتك بما وسعني أن أنبئك به من أنبائها ، فهل كنت تريد أن
تمتحن ذوقي ؟ أو هل كنت تريد أن تعرض نفسك لمثل ما عرضت نفسي
له من المحنة ؟ إنك لست في حاجة إلى فرنند إن كنت تريد أن تبلو
مثل ما بلوت ؛ فأمثال فرنند كثيرات في كل فندق وفي كل مدينة وفي

تجرب من قبل
نعم هذا الأمر
إلى جاسم بن
لأنك لم تترك
تبدأ عينا
لا يتطرون له
الفرجين له
أرض الوطن
أهم لم يترك
الأمم من قبل
ولت عزائم
الحظ . لكن
ظنة الخطر
من الأشياء
مع الفرور
الحرب ، لكن
باريس ، وأما
كانت من قبل
لغة شيوخ معزاة
لمون . وشغل

كل بيثة . فاحذر أن تتعرض لمكرهن ، وارفع نفسك عن هذا الشر الذي غمست نفسك فيه ، والذي لا أستطيع أن أخلص منه مهما أبذل من جهد وأتكلف من عناء .

لقد صديق « موسى » حين شبه قلب الرجل النقي بالإناء العميق ، إذا استقر الدنس في قاعه فليس إلى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . إن قلبي هو هذا الإناء ، وقد استقر في قاعه هذا الدنس . ولقد حاولت تطهيره ما استطعت إلى ذلك سبيلاً : بالتفكير والتدبر ، بالقراءة والدرس ، بالجد والنشاط ، بهذه المثل العليا التي كنت اتخذتها وأجد في السعي إليها ، وأوفق أحياناً في هذا السعي بما حاولت من إرضاء الأساتذة ، وبما حاولت من إرضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من إرضاء الجامعة ، وبما بلغت من هذا كله ، ولكنني مع ذلك لم أستطع أن أخرج من قرارة نفسي هذا الدنس الذي استقر فيها فلزمها لزوماً ، واتصل بها اتصالاً لا انقطاع له .

لقد خيل لي في بعض الأوقات أنني قد خلصت من الشر وبرئت من الإثم ، وارتفعت عن النقيصة ، وأني قد كفرت بالمرض الطويل الثقيل المهلك عما اقترفت من السيئات ، وأني قد طهرت نفسي بالعلم تطهيراً ، وكرمتها بالدرس عن كل ما يفسدها ويشينها ، وأخذت أكبر نفسي وأغالي بها ، ولكنني تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها ، وأن القضاء نافذ بالغ أجله مهما نفعل ومهما نحاول . وقد عرفت قضاء الله في أمري . فأنا رجل موكل بالجد واللهو معاً ، أبلو اللذة حتى أصل

إلا
فإن
إراد
الأ
أن
شطر
بعض
أرضها
هذه
شديد
اللاتينية
أخذنا

إلى أقصاها ، وأبلى الألم حتى أنتهى إلى غايته ، أقبل على العلم حتى
كأنى لم أخلق إلا للعلم ، ثم أقبل على اللهو حتى كأنى لم أخلق إلا
اللهو . أقبل على العلم فلا يصرفنى عنه صارف مهما يكن ، وأقبل على
اللهو فلا يشغلنى عنه شاغل مهما يكن . يتاح لى الغنى ويلم لى الفقر ،
فلا يمنعنى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم إن كنت مقبلاً عليه ، ولا
من المضى فى اللهو إن كنت منصرفاً إليه . وقد عرفت إين - إن كنت
تذكر إين - من أمرى هذا كله ، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت
إن رأتنى مقبلاً على العلم تهملنى حتى كأنها لم تعرفنى قط ، وإن رأتنى
مقبلاً على اللهو تغنى بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط . وأنا يأسيدى
كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو . وقد بقى لى شيء من
إرادة ، فأنا أنفقه فى تنظيم أمرى على وجه ما ، وأود لو استطعت أن
ألائم بين هذين العدوين اللذين يختصمان فى اختصاصاً ، وأود لو استطعت
أن أقسم وقى وجهدى بينهما قسمة عادلة ، فللعلم شطر منهما واللهو
شطر آخر . فن يدري ! لعلنى إن وفقت لهذه القسمة أن أصلح مزاجى
بعض الإصلاح ، وأن أنظم أمرى بعض التنظيم ، وأن أنتهى إلى نتيجة
أرضها وأرضى بها من لا بد أن أرضيهم من الناس . وقد أخذت فى
هذه التجربة منذ أسابيع ، وأنا أبذل فيها جهداً عنيفاً وألقى فيها شططاً
شديداً ، وأخشى كل الخشية ألا أوفق لشيء . لقد أخذت أدرس
اللاتينية ، ورتبت نظام الدرس مع الأستاذ ترتيباً رضيه وأقره ، فلما
أخذنا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه لم نجد إلى ذلك سبيلاً . ولو أنك سألته

لما لم
ما أبل
معتق
ر به ما
النفس
إلتدبر
انظم
من إرادة
الوات من
لم استطع
لرؤى
ر وبرت
الطويل
مى بالعلم
لبن أكر
ر كلها
يفتقنا
حتى أم

عنى لأنبأك فى يأس وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس ، وبأنى أقدر الناس على العمل وأعظمهم حظاً من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجهد وأعظمهم نصيباً من الحيلة . أما فى أول أمرنا فقد كان لا يزورنى إلا وجدنى مستعداً للقائه مهيئاً لدرسه . وكان يزعم لى أنى سألتقدم للامتحان فى وقت قريب وسأفوز فيه فوزاً ميبيناً . ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صرفت عن العلم ودفعت إلى اللذة ، وأفلت من السوربون ولزمت ذراعى إلين . ويزورنى الأستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مغرقاً فى النوم لأنى أفنيت الليل ووجه النهار فى اللهو والعبث والمجون ؛ فيستئش إذ تكررت زيارته فى غير جدوى .

ولكنى أفرغ له بعد حين ، فأسعى إليه وألح عليه ، وأعوض ما فات وأصلح ما فسد ، وأرضيه بعد سخط . وعلى هذا النحو تمضى حياتى منذ حين ، ولم يزد لها شوب الحرب إلا مضياً فى هذا النحو من الفساد والاضطراب . فقد محت الحرب من نفسى كل ثقة ، وذادت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة . فأنا أحيا لغير شىء ، أو قل إنى لا أحيا ، وإنما أنتظر شيئاً مجهولاً لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه ، ولو قد أردت لما استطعت . وأنا أنتظر هذا الشىء المجهول كما أستطيع أن أنتظره ، مستعيناً عليه بالعلم والجهد حين أفرغ للعلم والجهد ، وباللهو والعبث حين أنقطع للهو والعبث . وقد يتاح لى أن أفكر فى ذلك ، وأن أمتحنه وأحاول أن أعرف أسبابه ، فأشعر بأن نشأتى فى مصر هى التى دفعتنى إلى هذا كله دفعاً وفرضت

هذا كله على فرضاً ؛ لأننى لم أنشأ نشأة منظمة ، ولم تسيطر على تربيئى وتعليمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب ، تدفعنى إلى يمين وتدفعنى إلى شمال ، وتقف بى أحياناً بين ذلك . ولو أنى بقيت فى مصر لأنفقت حياتى كلها كما بدأتها فى هذا الاضطراب المتصل فى غير نظام وإلى غير غاية . ولكنى عبرت البحر إلى بيئة لا يصلح فيها الاضطراب ، ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة ، فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الأثقال فيها ، ولم أحسن الخضوع لما تفرضه من نظام واطراد . ثم كانت الحرب واضطربت الدنيا ، وأضيف فى نفسى فساد إلى فساد واضطراب إلى اضطراب ، ففقدت نفسى محورها - إن صح هذا التعبير - وأصبحت لعبة تتقاذفها الأهواء .

ما أشد حاجتى إلى قربك أيها الصديق ؛ فقد تقدر على أن تنفعنى ، ولكنى لا أستطيع أن أفرّ إليك من باريس ، فالموت أهون على من ترك باريس ، ولا أستطيع أن أنقلك إلى حيث أنا ، فالجامعة تحول بينك وبين هذا الانتقال . وإنى مع ذلك لأخشى على نفسى كل شئ ، وإنى مع ذلك لأظن أنى لن أعود إلى مصر - إن عدت إليها - سالماً موفور العقل مستقيم الملكات قادراً على النفع والإنتاج . فلينفذ القضاء إذاً ، ولتم كلمته . فلئن ذهب فى غير نفع فما أكثر الشبان الذين يذهبون فى غير نفع هذه الأيام !

يناير في ...

إن ظننت أيها الصديق أن في بقية من عقل أو فضلا من إرادة ،
فانف عن نفسك هذا الظن نفياً . فالبرهان يقوم لي كل يوم على أنني
أسعى إلى الجنون في سرعة تزداد بين حين وحين ، كما تزداد سرعة
السقوط بالجسم الذي يهوى إلى الأرض بين ثانية وثانية . فإن كنت
في شك من ذلك فاعلم أنني أنفقت في القراءة وفي القراءة وحدها إجازة
عيد الميلاد ورأس السنة على حين كان الناس ينصرفون إلى ما ينصرفون
إليه في هذه الأيام التي هي أيام بهجة وعيد عادة ، والتي يشوبها الحزن
والألم هذه المرة . كنت أنا عاكفاً على « سيسرون » و « تاسيت »
قراءة وفهماً وترجمة . وكنت أجد لذة في هذه الليالي التي أنفقها من
وراء الباب مع الكتاب إلقدماء والشعراء القدماء ، على حين يحيا الناس
حياتهم ويمجدون فيها ما يجدون من اللذات والآلام . وقد أنسيت كل
شيء وأنسيت كل إنسان . ولولا أن الخادم كانت تحمل إلى الطعام
أو تدعوني إليه لأنسيته أيضاً . وقد انقطعت الصلة بيني وبين إيلين في
هذه الأيام التي كان يجب أن تقوى فيها الصلة وتكون بمأمن من الضعف
والفتور .

ثم انقضت الإجازة ، وجعلت أختلف إلى السربون ، فسمعت درس

اللاتينية وظفرت بثناء الأستاذ ، وخرجت . ولكنى لم أذهب إلى بيتى ، وإنما ذهبت إلى حيث ألقى إلين . وقد لقيتها ، وأنفقت معها اليوم بعيداً عن باريس فى غابة من هذه الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفرق إلا لنتقى بعد قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لأكتب إليك ، ولأظهرك من أمرى على أطوار هذا المرض الذى يسعى إلى ، أو يسعى فى سعيًا حثيثاً . وثق بأن السربون لن ترانى غداً ولا بعد غد ، بل ثق بأنى لا أعلم متى ترانى السربون .

وداعاً يا سيدى . إنى لأرى شبح الجنون بغيضاً مزعجاً ، ولكنى مع ذلك لا أهابه ولا أتأخر عنه ، وإنما أقدم عليه لإقدام الحب الجرىء . وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة إلين !

١٨

يوليو فى . . .

لم يكن الامتحان عسيراً ، ومع ذلك فقد أخفقت فيه أبجل إخفاق وأروع ، هذا الإخفاق الذى لا يظفر الطالب فيه بدرجة أو بعض درجة ، وإنما يظفر فيه بالصفير المريع . ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئاً ؛ فقد تقلمت إليه سرّاً ، فلن أؤدى لها حساباً عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به علماً . لم أكن أشك فى الفوز ؛ فقد وعدنى به أستاذى الخاص الذى أتعلم عليه اللاتينية ، ووعدت نفسى به وتبأت له كأحسن

١٧٥

ما يتيأ طالب للامتحان . ولكن أدركنى نوبة المرض أو نوبة اللهو
— إن أردت الدقة فى التعبير — قبل موعد الامتحان بأسبوعين ، فقضيت
هذين الأسبوعين مع إلين ، نهم فى الغابات إذا كان النهار ، ونطوف
على الحانات إذا كان الليل ، ولا نلم بالبيت إلا مطلع الفجر .
كانت إلين تذكرنى بموعد الامتحان ، وتحذرنى عاقبة هذا الجنون ،
وتصور لى جمال الفوز ، وتمننى تلك الأيام الجميلة التى سننققها بعيداً
عن باريس إذا كان الصيف . ولكنى كنت أعرض عنها أشد الإعراض ،
وأزجرها أشد الزجر . فقد كان شيطان اللهو قد ملأ قلبى ونفسى
وركب كتنى .

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد فى الذهاب إلى السوربون ولا فى
دخول حجرة الامتحان ، وأخذ النص اللاتينى فأقرؤه وأقرؤه ، ثم
أقرؤه وأقرؤه ، فلا أفهم شيئاً ولا أصنع شيئاً . وأنا أبذل جهداً عقلياً
عنيفاً لعلى أوفق لفهم جملة أو بعض جملة ، فإذا لم أظفر بشئ ، رددت
النص كما أخذته ، وانصرفت إلى بيتى راضياً محزوناً معاً . ثم لا أكاد
أخلو إلى هذا النص بعد ذلك بساعة أو ساعتين حتى أفهمه فى غير
مشقة وأترجمه فى غير جهد ، وأستوثق من أنى كنت خليقاً أن أفوز ،
وإذا قلبى يمتلى سروراً وبهجة ، وإذا أنا أسرع إلى إلين فأنبئها بأنى
جمعت بين الفوز والإخفاق معاً .

وداعاً يا سيدى ! سأنجح فى نوفمبر إذا لم يدركنى الشيطان . فأما
الآن فإلى اللهو ، إلى اللهو المجنون الذى لا يعرف رفقاً ولا مهلاً ولا تفكيراً .

إلى اللهو حتى يضعف العقل والجسم معاً ، وحتى أضطر إلى الراحة ثم
إلى الجهد اضطراراً .

١٩

سبتمبر . . .

وإذا فقد زرت فرنسا وأقيمت فيها ، وستعود إلى مصر ولم يكن بينك
وبيني هذا اللقاء الذي كنا نرجوه . ولست أدري أيسوءك هذا أم
لا يسوءك ، ولكني أعلم أنه يسوءني حقاً ؛ فقد كنت حريصاً على لقاءك
لأراك بعد أن طال افتراقنا ، وقد كنت حريصاً على لقاءك لأستعين
بك على نفسي وعلى ما يدهمها من الأحداث والخطوب . ولكن الجامعة
أبت أن نلتقي ، وأبت الظروف أن تطول إقامتك في هذا البلد حتى تتاح
لنا فرصة اللقاء . ولماي لأرجو أن تتاح لك عودة قريبة ، فما أرى أنك
قد زرت فرنسا ولا انتفعت بزيارتها ، وما أظن إلا أنك ستعود وفي نفسك
جسرات لا تنقضي . فليس من الهين أن تدنو من الغاية ثم ترد عنها
رداً ، وأن تشارف الأمل ثم تقطع بينك وبينه الأسباب . ولست في
حاجة إلى أن أنبئك بأني قد رفضت الإذعان لأمر الجامعة ، وأبيت
أن أعود في هذه المرة كما أبيت ذلك في العام الماضي . وكيف تريدني
على أن أعد وقد أنفقت أعواماً في فرنسا ، ثم لم أصنع شيئاً تحسن
العودة والاطمئنان إليه ، وإنما كان حظي من الفساد والشر أكثر من

ن أرى أن
بوعين ، القصر
الجار ، القصر
القصر
أقبة هذا الجبل
في سجنها
أشد الإهمال
ملاً قلبه
السور
رأه وأرواه
بلد جهل
لغيره
معاً . ثم لا
ن أنه
خلفاً أن
إلين أن
الـ
الـ
الـ

حظى من الصلاح والخير ! وماذا تريد أن أقول حين أعود إلى مصر
فأسأل عما صنعت ؟ أحدث الناس عن فرنند وإلين وما لقيت عندهما
مما أحب وما لا أحب ؟ أم أحدث الناس بذلك المرض الذى ألح على
جسمى حتى أشرف بى على الموت ؟ أم أحدثهم بهذا المرض الذى ألح
على عقلى حتى أشرف بى على الجنون ؟

لا ياسيدى ! إن العودة إلى مصر شيء لم يقدر لى بعد . ولو أنى
بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما أريد ما رضيت هذه العودة ولا أجبث
إليها . فأنت تعلم أنى قد نذرت ألا أترك باريس حتى أصير إلى ما
تصير إليه ، وحتى أرى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما
أبعد الأمد بيننا وبين آخر الحرب كما ترى ! فالأسباب مقطوعة بيني
وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شيء يجرى كما أحب ،
فكيف أعود إلى مصر دون أن أصطحب إلين وليس لى إلى الحياة
سبيل . إذا لم أكن قريباً من إلين ، أراها متى شئت وترانى متى أحببت ،
وأفزع إليها حين أضيق بحياة العمل والجد ، وإلين فرنسية لا تريد أن
تهجر وطنها ، ولا أن تفارق باريس ، وإن أعطيت ملء الأرض ذهباً .
فإقامتى فى فرنسا قضاء محتوم لامندوحة لى عنه . وشهد الله ما أجده لذلك
ألماً ، وإنما أجده فيه اللذة كل اللذة . فاقراً تحيى على مصر إن شئت ،
ولا تحدث أصحابنا بشيء من أمرى . وإن سألك أهلى عن بعض أمرى
فقل لهم ما يخطر لك ، ولكن احذر أن تنبئهم من حقيقة أمرى بشيء ؛
فما ينبغي أن نشق على هذين الشيخين ، وما ينبغي أن نشمت بنا الشامتين

وبعد فإن أمور مصر محزنة حقًا . أليس مما يسوء ويحزن أن يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استبقاء بعومها في أوروبا حتى تتم ما أرسلت من أجله ؟
أوليس مما يحزن ويسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشاقة التي تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أنقائها ونفقاتها ، وتضحى فيها بما تضحى به من الأنفس والأموال ، وأن نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر ؟ ولكن ماذا ينفع الحزن والأسى ، وماذا يجدى اللوم والتفريع ؟ لا بد مما ليس منه بد . عد إلى مصر فأنت مضطر إلى أن تعود . ولأبقى أنا في فرنسا . فأنا مكره على أن أبقى . وسرى أبتاح لنا أن نلتقى ، وأين يتاح لنا أن نلتقى !
وداعاً أيها الصديق وإن لم يكن بيننا لقاء .

٢٠

وأعود إلى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها في القاهرة فأرى صاحبي ، ولكني لا أكاد أعرفه لولا صوته الذي لم يتغير ولولا ضحكاته العراض التي لم تهذبها الإقامة في باريس ؛ فأما غير ذلك من أطوار نفسه فقد تغير حتى أنكرته أشد الإنكار . فصاحبي محزون مغرق في الحزن ، حتى ليفسد عليك رأيك في الحياة إن لقيته في هذا الطور . وصاحبي مسرور

مغرق في السرور ، حتى ليثير في نفسك الإشفاق عليه من هذا الإغراق في السرور إن لقيته في هذا الطور أيضاً . وصاحبي ينتقل من الحزن إلى السرور ومن السرور إلى الحزن فجأة في غير تهيو ولا تدرج- ولا انتظار لهذا الانتقال . وإنما أنت مع رجل بائس يائس ، سيء الرأي في الحياة والأحياء ، قد أظلم كل شيء في وجهه وفي نفسه ، فلست تسمع منه إلا شراً ونكراً . وإذا أنت ترى هذا الرجل وقد وثب فجأة من نقيض إلى نقيض وأصبح فرحاً مرحاً ، منطلق اللسان بالثناء على كل أحد وعلى كل شيء ، ممتلئ الفم بهذا الضحك المزعج العريض ، لا يتكلم هادئاً ولا يتحرك هادئاً ، وإنما هو عنيف في لفظه ، عنيف في حركته ، عنيف في كل شيء ، حتى إنه ليلفت إليه وإليك الناس ، وحتى إنه ليخيفك من أن ينكروا مكانكما ويدعوكما إلى الصمت وإلى إثارة الهدوء .

وصاحبي إن حزن لا يعدل بالكتاب شيئاً ، وصاحبي إن سر لا يعدل بالشراب شيئاً . وهو مسرف في صحبة الكتاب يأخذ الجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده ازدراداً . وصاحبي مسرف في الشراب إذا أقبل الليل عليه لم تكفه الزجاجة ولا الزجاجتان من معتق التبيد ، وإنما يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو لا يعجز عن الشرب إلا حين تعجز يده عن تناول الزجاجة وصب شيء من روحها في القدح . وإذا انتهى العجز بصاحبي إلى هذا الحد لبث مكانه لا يريم ، نائماً كالمستيقظ ، ومستيقظاً كالنائم حتى تنجلي عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبي يختلف

إلى السوربون قليلاً ولا يكاد يختلف إلى القهوة ، ولكنه يلزم بيته في أكبر الوقت . وقد يستغنى اليوم أو الأيام لا نعلم أين هو ، ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع إلين . ولم يتح لأحد أصحابه ولم يتح لي بالطبع أن نرى إلين هذه أو نسمع منها أو نتحدث إليها ، حتى لقد كان يخيل إلينا أنها شخص من أشخاص الأساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقاً في وقت من أوقات سكره ولهو . ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث ، وكانت أحاديثه لا تصور شخصاً مخترعاً ، وإنما تصور شخصاً حياً يذهب ويحيى ، ويعبث ويلهو ويعين على اللعب واللهو ، ويدفع إليهما أحياناً . وكثيراً ما ألحنا على صاحبنا في أن يعرفنا إلى إلين أو يعرفها إلينا ، فلم نكن نلقى منه إلا إباء وإعراضاً . وكان يقول : إن حب الاستطلاع إثم ، فما تريدون إلى إلين ؟ إني أحدثكم من أمرها بما يعنيكم وما لا يعنيكم ، وإلين صاحبتى أنا لا صاحبتكم أنتم ، ولن يكون لكم منها إلا هذا الذى تسمعون عنها ، وإنه لكثير أكثر مما ينبغى . وكثيراً ما جد بعض أصحابنا في تتبعه والبحث عن إلين فلم يظفر بطائل . ولولا أنى رأيت إلين بعد ذلك لما شككت في أنها كانت شخصاً من أشخاص الخيال .

وقد أنفقنا عاماً دراسياً كاملاً على هذا النحو ، ألقى صاحبتى بين حين وحين فأنكر من أمره أكثر مما أعرف ، ولا تتصل بينه وبينى تلك الأحاديث التى كانت تتصل بيننا في القاهرة التى كانت لا تنقضى ، وإنما تلتوى وتعوج ، وتخرج بنا من موضوع إلى موضوع ومن رأى إلى رأى ،

حتى أضرع إليه في أن يقفها لأنه أعياني وأجهدني حقاً .
لم تكن تتصل بيننا هذه الأحاديث في باريس ، إنما كان يلّم
بحديث عن السوربون قليلا ويطيل الحديث عن إلين ، مثنياً عليها حيناً ،
شاكياً منها حيناً آخر ، واصفاً محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائماً .
ثم يفرق الصيف بيننا ، فأذهب أنا إلى الجبل ، ويقيم هو في
باريس لا يكاد يفارقها إلا إلى ضاحية من الضواحي أو غابة من الغابات
ينفق فيها النهار أو بعض النهار مع إلين .
ثم أعود إلى باريس آخر الصيف وقد قدمت إليه النبا بعودتي فإذا
بلغتها لم ألقه ، فإذا انتظرت لم يسع إلي ، ولكن صاحبة الباب تصعد إلى
ذات صباح وتدفع إلي قطعة من الورق ما أشك في أنها قد اقتطعت من
علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات :
« صديقك مريض ينتظر عيادتك » .

فأسرع إليه فأراه . ويأشر ما أراه ! أرى صاحبي مريضاً لا تظهر
عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الإيمان بأنه مريض ، لا يشكو
شيئاً ، ولكنه واثق كل الثقة بأنه مريض . قد عرض على الأطباء فلم
ينكروا من صحته شيئاً ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض وبأن
الأطباء مخطئون . ولا أكاد أتحدث إليه وأتبسط معه في الحديث حتى
أستيقن أنا أيضاً أنه مريض وأن مرضه أخطر جداً مما يظن وبما كنت
أقدر ؛ فقد انتهى إلى الجنون الذي كان يحشاه أو إلى شيء قريب جداً
من هذا الجنون .

كان يتحدث إلى في أمر السوربون أو في أمر إلين فيستقيم الحديث استقامة حسنة ، ولكنه لا يكاد يسمع في الجو أزيز الطائرة -- وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطائرات في باريس -- حتى ينهض بل يشب ويهم بالخروج . فإذا سأله ما خطبه ؟ أجاب : ألسنت تسمع أزيز هذه الطائرة فإنه دعاء لي إلى الخروج .

وكان قد استقر في نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقتته وبغضه والكيد له . وكان يشتري منها أكثر ما يستطيع شراءه ، وينفق في قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذي تكيده له ، وهذا المكر الخبيث الذي تمكره به . ولم يكن يلقي في ذلك كبير جهد ؛ فقد كان هو ألمانيًا ، وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجهًا إليه ومنصبًا عليه انصبابًا . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفاءه لباريس وإقامته فيها حين تفرق عنها الناس . ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق !

ثم يعظم الأمر قليلا قليلا ، وإذا الحلفاء جميعاً يمكرون به ويكيدون له ويدبرون له سوء . ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألماني ! وأصبح ذات يوم مرتاعاً حقاً ؛ فقد جاءه النبأ -- ولست أدري كيف جاءه ولا من أين جاءه -- بأن الحلفاء يأتمرون به لينفوه إلى المغرب الأقصى . وهو يتبني بأنه قد جد في السعي لصرف الحلفاء عن هذا الإثم العظيم والظلم القبيح ، فكتب إلى جماعة من أساتذته في السوربون وإلى جماعة من كبار الساسة في مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة

ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة . وهو ينتظر ردهم عليه ؛ ولكنه ضيق
بباريس هذه الخائنة الماكرة التي لا تعرف جيلاً ، ولا ترعى حقاً ،
ولا تحفظ ود الصديق ، والتي هي في حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه
الفتاة الخائنة التي كانت تسمى إلين والتي قد جحدت حقه ونسيت مودته
وأعرضت عن حبه إعراضاً ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر مع
الماكرين . وهو يلح على أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه في
مدينة أخرى أقل خيانة وغدراً من هذه المدينة الخائنة الغادرة التي يسكنها
الخونة الغادرون . والطبيب الذي يعوده لا يرى بأساً بأن يفارق باريس
ويقیم في مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هي إلا أن يستقر صاحبي
في أحد الفنادق غير بعيد من باريس في طرف غابة من الغابات .
ومن هذا الفندق تصدر رسائله التي لا تنقضي إلى أساتذة السوربون وإلى
رجال وزارة الخارجية وإلى أنا . ويالها من كتب تلك التي كانت تنهى
إلي في الصباح والمساء من كل يوم ! حسبي أن أثبت منها هذا الكتاب القصير :
نوفمبر في . . .

لم يبق لي أمل ولا شيء يشبه الأمل أيها الصديق ؛ فقد أجمع الخلفاء
أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون في ذلك مراجعة ولا شفاعة ، بل هم قطعوا
على الشفاعاة كل طريق ، فأفسدوا على حتى أساتذة السوربون الذين
كانوا يحبونني ويؤثرونني أشد الإيثار . فهؤلاء الأساتذة يتلقون رسائلي
فلا يردون عليها ، وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطي فهم لا يقرءون كتبي
إذا انتهت إليهم . والغريب أن أحدهم فلاناً . . . كان قد امتلأ قلبه حباً

لي وإعجاباً بي حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت إليه ابنته . وهذه الخطبة هي التي غاظت إلين فصرقتها عني ولست أدري من أبلغها أمر هذه الخطبة التي كانت سرّاً ، إلا أن يكون هذا الصديق الماكر الذي تعرفه ، فقد شربت معه ذات ليلة وتبسّطت في الحديث . فلما أصبحت انتهت إلى رسالة القطيعة من إلين .

وإلين من غير شك هي التي أفسدت على قلوب الحلفاء وصورتني لهم في صورة العدو الخيف ، وهي التي زينت لهم نفبي إلى المغرب الأقصى . يا لغيرة النساء ! ويا لكيد النساء ! ويا لضعف الرجال ! ويا لسبذاجة الرجال ! وإن كانوا أساتذة في السوربون أو ساسة محنكين . لم يبق لي أمل في عفو الحلفاء . عفوهم عن ماذا ؟ وهل جنيت عليهم ذنباً أو اقترفت في ذاتهم إثماً ؟ لقد كنت أدافع عنهم في كل فرصة وأزود عن حقوقهم بالقلم واللسان ، ولكنهم قد أجمعوا أمرهم على نفبي ، وأنت وحدك القادر على حمايتي ووقايتي من هذا النفي . وماذا تريد أن أضنع في المغرب الأقصى ؟ أليست مصر أولى بي ؟ أم لست أنا أولى بمصر ؟ إن في مصر حميدة وإن في فرنسا إلين ، وجوار حميدة على بغضها لي أهون على من جوار إلين ؛ فإن حميدة لم تؤلب على ، ولم تكد لي ، وإنما تلقت إساءتي إليها بالصبر والعفو . أما إلين فقد تلقت إحساني إليها بالجحود والعقوق . فلا مقام لي في هذا البلد ، ولا سبيل إلى الرحيل إلا أن تعينني عليه وأن تحكمني تديره إحكاماً . فعيون الحلفاء يقظة لا تنام ، وجواسيسهم منبثة في المخطات والشغور . ولست أدري كيف تريد أن

تدبر الأمر . ولكنى معتمد عليك فى إخراجى من هذه الأرض . وأنا
مستعد للتكر فى شئت من الأشكال والأزياء حتى أبلغ مصر . فإذا
وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلمونى حين أساءوا الظن
بى وسمعوا فى وشاية الوشاة ، فمن يدرى ! لعلى أعود إلى فرنسا فأتم درسى فى
السوربون وأقترن إلى هذه الفتاة التى أحبها حباً لا حد له ، والتى قد رضىنى
أبوها لها زوجاً ، والتى كدت أسعد بزواجها لولا إلين ولولا وشاية هذا
الصديق الخائن . صدقنى إن من ضعف الرأى وفساد العقل أن تطمئن إلى
هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصدقاء .

٢١٠

وتحمل إلى صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا الكتاب
سلى :

أنت تعرفى من غير شك ، فكثيراً ما حدثك عنى صديقك . . .
وكثيراً ما حدثنى عنك ، وقد صورك لى دائماً على أنك أحب أصدقائه
إليه ، وأوفاهم له ، وأحفظهم لسره . فأنا أحمل إليك هذه الحقيبة بعد أن
احتفظت بها عاماً كاملاً ، لا لأنى كنت أنتظر أن يعود صاحبها إلى ،
فقد أياسنى الأطباء من شفائه ، بل لأنى كنت أجد الجهد كل الجهد فى
فراقها ، وفى فراق ما يتصل به من الكتب والمتاع . ولكن هذه الأعوام التى
نحياها قد علمتنا الإذعان للقضاء والخضوع لما ليس منه بد . فإليك

١٨٦

هذه الحقيقة يا سيدى ؛ فإن لصاحبها من أبناء وطنه أهلاً وأصدقاء هم
أحق منى بما فيها وأجدر أن يفهموه ويقدروه .
وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جداً ومتاع ليس بذى
بال ، فهذه الغرفة طوع أمرك متى شئت أقبلت فأخذت ما فيها ووجهته
حيث أحببت .
ولك يا سيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينقضى أو تهدأ
لوعته قبل زمن طويل .

* * *

وقد حفظت هذه الحقيقة بضعة عشر عاماً لا أعرف من أمرها إلا
أنها مملوءة بالأوراق . فلما أتاح الظالمون لى شيئاً من فراغ ، نظرت فى
هذه الأوراق فإذا أدب رائع حزين صريح ، لا عهد للفتنا بمثله فيما
يكتب أدباؤها المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بين يديه هذا الكتاب .
ولكن هل تسمح ظروف الحياة الأدبية المصرية بإذاعة هذه الآثار
يوماً ما .

س : ولما
ر : فإذا
أموال الظلم
درسى فى
ل : رضى
شاية هذا
نظمنا إلى

الكتاب

ك : ...

أصدقائه

ة بعد أن

ها إلى ،

الجهل فى

عوام إلى

فإليك .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٧٩٣٧

I.S.B.N 977-01 - 5708 - 2



General Organization of the Ahl-e-Hadith Library (G.O.A.H.L.)
Publishing House



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلفنا
نتشيب بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلفنا أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة فى كل بيت.

شبت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويشرى الوجدان بكتاب
فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث
ومازلفنا أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى
وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مائة وخمسون قرشاً

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع
١٩٩٨

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب